الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي - ميلة -

المعهد:الآداب واللغات

الميدان:اللغة و الأب العربي

عنوان المذكرة:

النزعة التشاؤمية في الأدب المهجري

مذكرة تخرج لنيل شهادة ليسانس نظام جديد
شعبة الأدب العربي

إعداد الطالبات:

1- عنصري أميرة
2- رحماني دنيـــا
3- بو طبيشة عبلة

إشراف الأستاذ:

عبد الحفيظ بورايو

السنة الجامعية: 2011/2010.

شكر و تقديـــــــــــــر

في مثل هذه اللحظات يتوف اليراع ليفكر قبل أن يخط الحروف ليجمعها في كلمات .....تتبعثر الأحرف و عبثا أن يحاول تجميعها في سطور سطورا كثيرة تمر في الخيال و لا يبقى لنا في نهاية المطاف إلا قليلا من الذكريات و صور تجمعنا برفاق كانوا إلى جانبنا .

فواجب علينا شكرهم و و نحن نخطو خطوتنا الأولى في غمار الحياة .

و نخص بجزيل الشكر و العرفان كل من أشعل شمعة في دروب علمنا

و

إلى من وقف على المنابر و أعطى من حصيلة فكره لينير دربنا

إلى الأساتذة الكرام في كلية الآداب و اللغات ، و نتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ

" **عبد الحفيظ بورايو** "

الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث فجزاه الله عنا كل خير وله منا كل التقدير و الإحترام .

مقدمة

مقدمـــــــة :

لقد مر الأدب العربي بمراحل و عصور أدبية كثيرة كان لكل منها طابعها المميز و صبغتها التي لونت نتاجها الفني و أعطته ميزته الخاصة و من بين هذه المراحل العصر الحديث الذي برت فيه فئات كثيرة من الأدباء جمعتهم اتجاهات و مدارس مختلفة ، ظهرت على إثرها ألوان جديدة و مستحدثة في فنون الكتابة الأدبية و من بين هذه المدارس مدرسة المهجر .

فالأدب المهجري يعد رافدا ثريا من روافد الأدب العربي الحديث ،كما يعد في شكله العام تحولا بارزا و مفترق طريق هام في تاريخ هذا الأدب ، فقد قدم أروع دليل على أصالته و عبقريته من ناحية و على توفر روح الإبداع و القدرة على التطور في تجديد تجربته من ناحية ثانية ، كما قدم هذا الأدب أيضا نتاجا خصيبا مترعا بالجمال حافلا بالرقة و العذوبة ، و ذلك حين نهضت به فئة قليلة من الأدباء العرب من السوريين و اللبنانيين الذين هاجروا من أوطانهم لأسباب معلومة و استقروا في ديار الغربة بالأمريكيتين.

إن اختيارنا لهذا الموضوع : << النزعة التشاؤمية في الأدب المهجري >>تعود في حقيقة الأمر إلى ميلنا الكبير لمطالعة الأدب الحديث و اتجاهاته و بالأخص قراءة أشعار و دواوين شعراء المهجر مثل إيليا أبو ماضي و ميخائيل نعيمة ، و جبران خليل جبران والشاعر القروي ..... و غيرهم .

و لقد قسمنا موضوعنا إلى مدخل وفصلين وخاتمة.

ففي المدخل تناولنا بالحديث مفهوم الأدب المهجري و نشأة الأدب العربي في بلاد المهجر ثم تحدثنا عن الهجرة و أسبابها :

و في الفصل الأول تحدثنا عن خصائص الأدب المهجري ، وبدأنا بالحديث عن مواضيع التجديد فيه .

أولا : في الموضوع .

ثانيا : في الفن الشعري .

و في الفصل الثاني قمنا بدراسة النزعة التشاؤمية في الأدب المهجري ، فبدأنا بالحديث عن ظاهرة التشاؤم ، أسباب التشاؤم .

و في الخاتمة أوجزنا أهم النتائج التي توصلنا إليها خلا دراستنا لهذا الموضوع .

ولقد صادفتنا أثناء عملنا هذا بعض الصعوبات منها قلة المصادر و المراجع بالمكتبة المركزية ، إضافة إلى ندره دواوين شعراء المهجر ، إلا أننا تجاوزنا هذه الصعوبات بالاعتماد على جملة من المصادر و المراجع و التي نذكر منها :

- التجديد في شعر المهجر لأنس داوود.
- شعراء الرابطة القلمية لناذرة جميل سراج.
- أدبنا و أدباؤنا في المهاجر الأمريكية لجورج صيدح .
- حركة التجديد الشعري في المهجر بين النظرية و التطبيق لعبد الحكيم بلبع.

- ملامح الشعر المهجري لخفاجة عبد المنعم .

- المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر (نسيب نشاوي).

بالإضافة إلى مجموعة من المصادر و الدواوين كديوان إيليا أبو ماضي << الجداول >> ، << الخمائل >> ، و ديوان نسيب عريضة << الأرواح الحائرة >> .....إلخ .

و في الختام، نتمنى أن نكون قد وفقنا في عملنا هذا،الذي نرجو له ان يكون بذرة خير في دنيا الأدب العربي .

كما نشكر كل من ساهم في إنجاز هذا العمل من قريب أو بعيد و لا يفوتنا أن نتقدم بجزيل الشكر و التقدير إلى أستاذنا الفاضل (عبد الحفيظ بورايو) على إشرافه على هذا العمل وعلى توجيهاته لنا منذ أن كان الموضوع فكرة إلى أن آتى أكله .

المدخـــــــل :

ماهية الأدب المهجري :

يتمثل الأدب المهجري في كل ما أبدعته عبقريات الشعراء الذين عاشوا في المهاجر الشمالية و هؤلاء كانوا يسمون بشعراء " الرابطة القلمية " و من أفذاذهم جبران خليل جبران ، و أمين الريحاني ، ميخائيل نعيمة و إيليا أبو ماضي ، نسيب عريضة و رشيد أيوب و غيرهم. كما يتمثل في كل ما أبدعته عبقريات الشعراء الذين إستوطنوا مهاجر الجنوب و كانوا يسمون بشعراء " العصبة الأندلسية " و من أفذاذهم أيضا إلياس فرحات ، الشاعر القروي << رشيد سليم الخوري >> و شكر الله الجر و فوزي و شفيق و رياض المعلوف و غيرهم .

و يمكن إطلاق القول بأن هذا الأدب في جملته و بخاصة أدب الرابطة القلمية كان ثورة على الشعر التقليدي الذي كان قد بلغ ذروته عند شوقي و حافظ في مصر و الملاط و اليازجي في لبنان و الزهاوي و الرصافي في العراق .[1]

مهما يكن من أمر الانتقادات التي وجهت إلى هذا الأدب من قبل النقاد المعاصرين له كطه حسين و مندور.

و بادئ ذي بدء نشير إلى أن الأدب المهجري هدفت عليه حملة عزيز أباضة في شكله و مضمونه فقال عن الشكل :

---

[1] - عبد الحكيم بليغ : التجديد الشعري في المهجر بين النظرية و التطبيق مكتبة الشباب ، دار الزيني للطباعة ص ص 23، 24 .

<<إن أسلوبهم لاشية فيه للبلاغة و حسن السبك ، صناعته البيانية تزور عن الذوق العربي السليم ، لا يفتحوا آفاق جديدة في الفن عجز عن الصعود إليها إخوانهم في لبنان ، فالأدب المهجري لا يتبلور بعد و لم يتخذ له صورة واضحة المعالم بحيث يفرد و له أثر بعيد المدى في تطور الأدب العربي المعاصر >> [2]

أما اعتراضات عزيز أباضة على مضمونه ففي قوله :

1- الحب عندهم يكاد يكون ثانوي القيمة في عناصر الحياة لا معنى عميق في أغوار النفس الإنسانية .

2- الشك طابع شعرهم، يشكون في كل شيء و لا يهتدون إلى شيء.

3- لا يأبهون بتعاليم الدين إقتداء بشعراء الغرب الذين لا ينظرون إلى الأديان نظرة ملؤها القداسة و الإحترام .

4- الطبيعة في شعرهم ليست حارة متدفقة ، أزهارها صناعية بل شذا.

و يعتقد سامي الكيالي ان الجو الحار الذي عاشه أولئك المهاجرون هو الذي مهد لأن يرسموا تأملاتهم بروح و أخيلة مجنحة.

و قد وصف المهاجرون لوعة الهجرة ووجد الشوق و الأحاسيس الإنسانية التي يحسدها المفكر الحر ....وصفوا الكون و الحياة بما في أسرارها من قوى زاخرة ، وصفوا طبيعة الإنسان الحاشر الذي حاول التفلسف وصفوا الجمال في روائع

---

[2] - جورج صيح : أدبنا و أدباؤنا في المهاجر الأمريكية ، ط الثالثة ، دار العلم للملايين بيروت (1964) ص ص 202 ، 203.

الطبيعة فكانت نزعاتهم التجديدية بدء الانطلاق إلى فهم رسالة الأدب على حقيقتها ، وقف عند هذه الروائع التي كتبها جبران و الريحاني و نعيمة و الحداد و عريضة و أبو ماضي و غيرهم ممن ضمتهم الرابطة القلمية ، نجد المعاني الإنسانية السامية ، و الأدب المهجري في البوح و البث و الذكرى و الحنين و الشعور بالغربة في الأرض و الشوق و الحزن و الكآبة و الألم و التشاؤم و الثورة و التحسس بالطبيعة و في الموضوعات الذاتية التي عالجها كلها شعر رومنطيقي خالص النزعة ، وهو شعر رومنطيقي ، باختياره النعوت البراقة الصارخة التي تعبر عن خوالج النفس بشكل محسوس ، و بتقصي النغم المتوافق مع اللفظة و الحس ، و بالنزعة إلى تحطيم القيود الشعرية.

و لئن كانت المدرسة المهجرية قد عنيت باللفظة التي تتجسد صورة ملموسة فإنها أهملت طاقاتها الإيحائية المشعة تلك التي قام عليها مجد المدرسة الرمزية فيما بعد .

و الشاعر المهاجر يهمس .....يهمس عاليا ، فيجعل الحياة كلها جميلة غناء ، يرسل تحت أفيائها الوارفة و هو في غلواء النشوة ،ترانيم رقيقة يتجاوب صداها في جنبات النفوس ذات الحساسية الشديدة .

و لمدرسة المهجر يتذكر في تحريك الأدب العربي نحو الرقي فهؤلاء تذوقوا الأدب الغربي و أشربوا الروح الرومنتيكية ، فلما التفتوا إلى الحركة الأدبية في

الشرق فلهم أن يكون الأدب مفيد الخطى فرفعوا لواء الثورة و هاجموا المحافظين هجوما عنيفا و هاك على سبيل التمثيل شيئا من الشباب الذين ذاع شعرهم في العالم العربي لما فيه من عمق الصلة بين الفن و الحياة و غنائية عذبة .....تبدأ بالهمس في مواضيع الهمس ، و الحرق في مواضع الحنين ، و ارتفاع النبض ، و جهارة الصوت في لحظات التوهج و الانطلاق .....[3]

إضافة إلى هذا العرض فيما يخص الأدب المهجري ومعارضيه هناك كذلك بعض النقاد وقفوا إلى جانب هذا الأدب نجد على سبيل المثال العقاد في قوله : << إن الأدب المهجري عمره أربعون سنة على الأكثر و علينا أن نضعه أمام أربعين سنة تقابلها في موازين الآداب العربية ، فلا يخرج من المقابلة خاسرا لأن عدد المجيدين من شعرائه و كتابه لا يقل عن عدد نظرائهم ، مع الفرق بين أناس تواتيهم الأسباب في مواطن اللغة ،وأناس يحملون مشعل اللغة إلى سماء لا يضاء فيها بغير ما يصنعونه من عصارة القريحة و عتاد الرزق و فروض الحياة >> [4]

و كذلك في قوه : << و قد قرأت لشعرا المهجر شعرا يوضع في جانب الطراز المختار في شعر اللغة كلها ، و لاسيما القصائد الغنائية ، قصائد الغزل و الحنين و الأمثال السائرة إننا لا نبرئ شعر المهجر من العيوب ، فما كان لأدب إنساني قط أن يبرأ من عيوب تلازم حسناته في كل لغة من اللغات ، و إن ضعف

[3] -نسيب نشاوي : المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر ديوان المطبوعات الجامعية 1984 ص 180.

[4] - جورج صيدح : أدبنا و أدباؤنا في المهاجر الأمريكية ط 3 ، دار العلم الملايين ببيروت 1961 ص 203.

الأسلوب فيه لا يزيد كثيرا على الملحوظ من قبيله في قصائد الشعراء المقيمين غير المهاجرين إن الرجحان إلى جانب الحسنات >>[5]

و كذلك خليل الهنداوي له رأي في شعر المهجر إذ يقوله :

" للأدب في المهجر مدرسة نافذة مستقلة بخصائصها عميقة بآثارها و كما ندرس اليوم الشعر الأندلسي في أدبنا سوف ندرس إذا الشعر المهجري ، إنه أحفل كل شعر بالألوان و اللوابح و الذكريات و النزعات الإنسانية .[6]

و كذلك نشر الأديب الجزائري أحمد عماد الدين مقال في مجلة " باريس " جاء فيه << قرأ الأدباء الجزائريون آثار أدباء المهجر فأعجبوا بها و أدركوا منذ ذلك الحين أن الأدب الحقيقي هو ما يعرف عند الشعور و يصف الحياة و مشاكلها ، فنشأ الأدب الجزائري على غرار الأدب المهجري بأغراضه الإنسانية الواسعة و مقاصده الاجتماعية الشاملة >>[7]

2- نشأة الأدب العربي في بلاد المهجر :

اتسعت آفاق العالم الجديد لملايين المهاجرين من جميع أنحاء العالم الذين نزحوا عن أوطانهم سعيا وراء الرزق ، و الحرية حرية الدين و حرية الفكر و الكلمة ، و من بين هؤلاء كان الآلاف من المهاجرين العرب ، الذين خرجوا من بلادهم و الأمل يداعب نفوسهم و يملأ قلوبهم بحياة أفضل كما قال أحد المهاجرين

---

[5] - المرجع السابق ص 207.
[6] - المرجع نفسه الصفحة نفسها .
[7] - المرجع نفسه ص 208 .

السوريين : << نحن جئنا مستجيرين مسترزقين >> و قد علل لنا " مسعود سماحة " أسباب عزمه على الهجرة إلى أمريكا 1913 في هذين البيتين :

سأترك أرض الحدود ففيها حياة الجبان و موت الجريئ

تقيد أقلام أحرارهـــــا و تطلق أيدي ذوي الميسر

أما " شكر الله الجر " فقد هاجر هاربا من الذل إلى كنف الحرية كما يقول :

إيه لبنان يشهد الله أنـــــا ما هجرناك عن قلى و صلابة

إنما أصبح المقام بأرض ال أرز للحر ذلة و معابـــــــة

كيف لا يهجر الأبي مكانـــا ملأ اليأس جوه و رحابـــة

و يؤيد " أنيس المقدسي " هؤلاء الأدباء في أسباب هجرتهم حيث يقول : << و كان الباعث على المهاجر اختلال الأحوال الاقتصادية في السلطة العثمانية ، بفساد الحكومة الاستبدادية حتى تضعضع الأمن و سادت الفوضى ، و درس العلم و ثقلت المعيشة >>.

لقد بدأت هذه الهجرة في أواخر القرن 19 ، حيث أخذت جماعات من البلاد العربية خصوصا سوريا و لبنان بالهجرة على شكل موجات متتالية بلغت أوجها سنة 1913 حيث دخل أمريكا الشمالية و حدها 9210 مهاجر من السوريين و اللبنانيين كان بينهم عدد غير قليل من الشباب المثقف الواعي الذي عز عليه أن يعيش أسير الظلم ، فأنطلق يبحث عن الحرية ، و لقد حط هؤلاء المهاجرون في

الأمريكيتين الشمالية و الجنوبية ، و خاصة البرازيل ، و منذ البداية تتلقى المحافظة على كيانهم العربي و مقومات لغتهم العربية حيث ظلوا يغنون في المهجر شعرا فيه من الجمال و الفتنة ما يذكرنا بالشعر العربي في الأندلس ، فكما كان للعرب تاريخ في الأندلس من صنع أيديهم و كما كان لهم فيها شعر جديد و موشحات جديدة ، كان للمهجرين الشمالي و الجنوبي أدبهم و شعرهم ، و ظلت لهم لغتهم العربية التي يقول فيها أحد شعرائهم :

لغة يهون على بنيها أن يروا يوم القيامة قبل يوم وفاتها .

و لقد ظهرت الفئتان في مطلع القرن 20 و خاصة بعد الحرب العالمية الأولى و أسهمنا في إرساء قواعد الأدب المهجري ، و تركتا أثرهما فيه ، و لكن فئة المهجر الشمالي كانت أطول باعا ، و أوسع آفاقا ، و أعمق إحساسا بالأدب و الشعر من فئة المهجر الجنوبي ، قد تحرروا في أدبهم من كل قديم و ظهر هذا جليا في كتاباتهم التي طبعت بطابع متميز من الحرية واسعة الأفق .

أما أدباء المهجر الجنوبي فقد سار قسم منهم على نهج المحافظين في الشرق و انطلق البعض الآخر على سجيته إلى حد بعيد . و في خضم هذا الصراع بين القديم و الجديد قامت حرب كلامية بين عرب سان باولو بالبرازيل حول استعمال كلمة " الخواجة " بدلا من كلمة " السيد " صورها الشاعر القروي في هذه الأبيات :

ما بين لفظة سيد و خواجـــــــــا حرب لهما هاج البريد و ماجا

و الناس في هذا انقسموا إلـــــــــى قسمين كل تابع منهاجـــــــا

فالبعض يرغب في الجديد و بعضهم يهوى القديم لأنه قد راجـــــا

لقد لقيت الثورة على القديم تأييدا من عرب المهجر الشمالي الذين عقدوا العزم على قطع كل صلة لهم بقديمهم ، و قد قربت نزعة التجديد هذه بين شعرائهم و أدبائهم ، فالتقت رغباتهم و أهدافهم في " الرابطة القلمية " التي أنشئوها في نيويورك سنة 1920 مكونة من جبران خليل جبران ، ميخائيل نعيمة ، و نسيب عريضة ، و إيليا أبو ماضي ، و رشيد أيوب ، و ندرة حداد و غيرهم ، و قد قامت هذه الرابطة بدور عظيم في نهضة الأدب العربي في المهجر الشمالي ، و كان لابد لهذه الرابطة من وسيلة لنشر إنتاج أعضائها ، فكانت جريدة " السائح " التي كان يملكها " عبد المسيح حداد ط ، أعضا الرابطة ، تلك الوسيلة التي حملت إلى العالم العربي نتاج قرائحهم و جادت به أقلامهم ، قبلها كانت مجلة " الفنون " ملك " نسيب عريضة " تقوم بذلك ، و كنها توقفت عن الصدور قبل نشوء الرابطة .

لقد ظلت الرابطة القلمية تعمل بنشاط من سنة 1920 إلى سنة 1931 ، ثم أنفرط عقدها حيث أخذت الموت يختطف أعضائها و هم في أوج عطائهم مبتدئا بعميدها جبران خليل جبران تلاه رشيد أيوب ، فإلياس عطا الله ، فنسيب عريضة

ثم ندرة حداد ، فوديع باحوط ، فإيليا أبو ماضي ، ثم توفي عبد المسيح حداد سنة 1963 و كان قد باع حقوق جريدته " السائح " إلى راجي الطاهر صاحب جريدة البيان في أواخر سنة 1957 .

أما ميخائيل نعيمة مستشار الرابطة ، فقد قرر العودة إلى مسقط رأسه " بسكنتا " في لبنان بعد وفاة صديقه الحميم جبران حيث عاش في شبه عزلة صوفية حافلة بالإنتاج الأدبي الروحي الذي أستلهمه من سحر لبنان و جماله .

لقد كتب أدباء المهجر الشمالي في أكثر الفنون الأدبية شعرها و نثرها ، و أبدعوا فيها و ابتكروا ، فقد كتبوا في مختلف نواحي الحياة و الطبيعة و النفس البشرية ، و نظموا اشعر و برعوا فيه و في انتقاء مواضيعه ، و كتبوا نثرا جميلا اجتماعيا و عاطفيا و تصويريا ، كما أعطوا أجود الأدب العربي في فن القصة و الرواية ، و قد قامت " الرابطة القلمية " بدور عظيم في هذه النهضة ، لاشك في أن الفضل في كل ما وصل إليه الأدب في المهجر الشمالي من سمو و رفعة و ما حققه من شهرة يعود لهذه الرابطة الجريئة .

أما أدباء المهجر الجنوبي فد كان بينهم فئة من ذوي المواهب الذين اهتموا بالشعر و نظموا في كل نواحيه القومية و الوجدانية ، الاجتماعية و الأسطورية ، الخيالية و التأملية و بعض فلتات من الشعر الروحي الذي يظهر فيه جليا أثر جبران و نعيمة ، و لقد أجاد هؤلاء الأدباء و أشتهر شعرهم في العالم العربي عن

طريق " العصبة الأندلسية " التي أسسها الشاعر " ميشال معلوف " الذي ينتمي إلى أسرة المعلوف المعروفة و المشهورة بالعلم و الأدب سنة 1933 ، و أنفق عليها من ماله الخاص سنة 1938 ، قرر العودة إلى لبنان حيث توفي في << زحلة >> مسقط رأسه إبان الحرب العالمية الثانية .

أنشئت " العصبة الأندلسية " التي يرمز أسمها إلى الاعتزاز بتراث العرب الغالي في الأندلس ، برئاسة << ميشال المعلوف >> ، و << داود شكور >> نائبا للرئيس ، و " نظير زيتون " أمينا ، و " يوسف اليقيني " أمينا للصندوق ، و عضوية أدباء معروفين أمثال " حبيب مسعود " ، و " نصر سمعان " ، و " حسني غراب " و غيرهم .....، و ما كاد يذيع صيتها حتى أنظم إليها نخبة من أشهر الأدباء و الشعراء و أقدرهم ثم أصبح مقرها ندوة لهم و أصبحت مجلتها " العصبية " لسان حالهم و مسرحا لأقلامهم ، و قد ظلت هذه المحلية منارا مضيئا حتى سنة 1941 حيث توقفت عن الصدور بنا على أمر من رئيس جمهورية البرازيل الذي منع بموجبه إصدار أي كتاب ، أو صحيفة أو منشور في غير لغة البلاد الرسمية ، و لكنها عادت إلى الصدور سنة 1947 بجهود " شفيق المعلوف " و عطائه السخي ، وعاد " حبيب مسعود " إلى رئاسة تحريرها من جديد ولكنها عادت و توقفت نهائيا.

و على غرار المآل الذي انتهت إليه " الرابطة القلمية " فقد انتهت " العصبة الأندلسية " في إثر وفاة بعض أعضائها و انفضاض البعض الآخر من حولها ، و عودة الآخرين إلى الشرق كل ذلك بعد أن قدموا للأدب عصارة عقولهم تاركين للأجيال خلفهم ثروة أدبية مهجرية يفتخر بها الأدب و الشعر العربي .

لقد أمتاز الأدب المهجري بنزعته التأملية الواسعة ، و بتحرره من القيود ، إشترك فيها أدباء المهجريين لأنها كانت تنبع أو تكاد ، من عوامل واحدة ، و الذي يقرأ أدبهم يلمس بوضوح مدى تغلغل الروح الإنسانية فيه ، " فإيليا أبي ماضي "يقول في قصيدته المعروفة " ابتسم "

قال : السماء كئيبة ! و تجهما قلت : ابتسم ، يكفي التجهم في السما

قال : الليالي جرعتني علقما قلت : ابتسم و لئن جرعت العلقما

فلعل غيرك إن رآك مرنما طرح الكآبة جانبا و ترنما

و أما " ميخائيل نعيمة " قد عبر عن إنسانية العميقة في قصيدته المشهورة " أخي " و المعروفة لجميع عشاق الشعر لما تحمه من المعاني الإنسانية الجميلة إذ يقول :

أخي ! إن عاد بعد الحرب جندي لأوطانه

و ألقى جسمه المنهوك في أحضان خلانه

فلا تطلب إذا ما عدت لأوطان خلانا

لأن الجوع لم يترك لنا صحبا تناجيهم

سوى أشباح موتانا

إلى أن يقول :

أخي ! قد ثم ما لو لم نشأه نحن ما تما

و قد عم البلاء لو أردنا نحن ما عما

فلا تندب فأذن الغير لا تصغي لشكوانا

بل اتبعني لنحفر خندقا بالفرش و المعول

لتوارى فيه موتانا

و ليس أدل على رحابة آفاق نعيمة الإنساني قوله :

و اجعل اللهم قلبي واحة تسقي القريب و الغريب

و في قول " أمين الريحاني : << إني في تلك الذرى زهرة من أزهار الحب الدائم العميم ، و في الحب الدائم العميم تتلاشى العصبيات الدينية و القومية كلها ، إني في تلك الذرى بذرة من بذور الخير الإنساني الأكبر ، و في الخير الإنساني الأكبر تضمحل الضغائن ، و تزول الخصومات في مشارق الأرض و مغاربها ، بين الأمم جمعاء>>

فهل هناك نداء أحن و أجمل من ندا نعيمة ،و هل هناك إنسانية أعم و أوسع من إنسانية أمين الريحاني ، إن نعيمة يشعر القارئ أنه أخ حبيب له في " الرابطة

الإنسانية الكبرى " أما أمين فإنه ينادي بالحب الحميم و الخير الأكبر لزوال العصيبان الدينية و القومية و الخصومات العالمية .

فالأدباء المهجريين ، كما يقول " جبران " : << قد بلغوا إلى قلب الحياة وجدوا الجمال في كل شيء ، حتى في العيون المتعامية عن الجمال >> .

الهجرة :

لقد كانت الأحوال في الأقطار العربية و بخاصة سوريا و لبنان سيئة للغاية حيث كانت مهدا للفتن و مسرحا للتقلبات تتلاعب بها الأهواء السياسية و الدينية و تكاد تعصف بكيانها لقد تطاحن فيها عرب و فرنجة و ترك ، و سوريون و مصريون و أوروبيون ، بل تطاحن أيضا يهود و مسيحيون و مسلمون ، هذه العناصر التي تتلاقى مصالحها أحيانا و تختلف أحيانا أخرى ، و التي كانت كل منها تحاول السيطرة على هذا الجزء الهام في المشرق العربي ، و ما لبثت هذه البلاد أن وقت تحت حكم العثمانيين ، و منذ ذلك اليوم و هي آخذة في التقهقر و سوء الحال حتى أصبحت الحياة فيها أمر لا يطاق و خاصة بالنسبة للمثقفين من القوم الذين تأثروا أو بدؤوا يتأثرون بمنابع الثقافة البشرية و غير البشرية مما جعلهم يتأثرون بما يسمعون عن الغرب و حياة الغرب و يشتاقون إلى ما فيه من حرية و إنطاق حتى تركوا بلادهم التي أضلتهم سنين عديدة و أضلت آباءهم و أجدادهم من قبلهم ، و ساروا موجهين عيونهم شطر بلاد يتنسمون فيها عبير

الحرية التي سلبوها في موطنهم الأول الذي لوا يحنون إليه ، و لسان حالهم يقول مع شاعرهم الأكبر " إيليا أبو ماضي " :

ارض أبائنا عليك السلام و سقى الله أنفس الآباء

ما هجرناك إذ هجرنا طوعا لا تضنى العقوق في الأبناء[8]

عوامل الهجرة :

إذا استعرضنا شعر الشعراء الذين تحدثوا عن بواعث مهاجرتهم و دوافع تركهم بلادهم آسفين على ذلك الفراق للأهل و الأحباب و مرتع الصب و مسقط الرأس وجدنا في ذلك مادة وفيرة. و يمكن أن نجعل أهم أسباب المهاجرة و بواعثها في النقاط الآتية :

1- الضيق الاقتصادي الذي كان يعيش فيه الشاميون ، فقد كان هناك فقر و حرمان لم ينفع في مداومتها جهد و لا نشاط ، و في وسط رجعي النزعة ، و في ظل حكومة غاشمة تنهب الأرزاق و تهدد الأرواح فالفلاح الذي لا يعرف قدرة اللحم إلا مرة واحدة في العام ، و غرفته المظلمة تضيف بالزوج و الأولاد و البهائم ، يسمع الأخبار عن البلاد بعيدة تدر الخيرات و تؤمن الحريات تنتابه رعشة تسري في مفاصله و تجعله كالمحموم يهدي بكلمة الهجرة .

---

[8] - نادرة جميل سراج : شعرا الرابطة القلمية – دراسات في شعر المهجر ، دار المعارف بمصر 1964 ص 41 .

يشرح توفيق غصون أحد المهاجرين بواعث الهجرة فيقول : << إن الذين غادروا سوريا إنما نزحوا عنها من الفقر و الجور و قد أموا هذه البلاد و سواها – أي أمريكا – لكي يجمعوا ما يمكنهم بعضه من العيش بهناء و يحقق لهم البعض الآخر نصيبا من العدل و الحرية >>

و أيضا رغبة الشاميين عرض سلعهم و تحفهم الفنية في معرض شيكاغو الذي ذاع صيته و جذب الكثيرين من الراغبين في النفع المادي .

2- ضيق مساحة الأرض، و كثرة السكان و استئثار الإقطاعيين بالأراضي الزراعية و بؤس الفلاح و انتشار الفقر و العوز ، مما دفعهم إلى إنتاج الرزق في بلد آخر .[9]

3- و كان الاضطهاد الديني و الفتن الطائفية التي آثارها الاستعمار منن التضييق على الأقليات أثر كبير في المهاجرة إلى بلاد تخلوا من هذا التعصب و من تلك الفتن .

4- الهروب من الالتحاق بخدمة الجيش التركي حيث أشتغل الشباب ليكون كبش الفداء للدفاع عن صفوف الجيش التركي ضد دول الغرب و المعادين للسلطة التركية

[9] - عبد الرحيم محمود زلط : العروبة في شعر المهاجر الأمريكي الجنوبي ط 1 دار الفكر العربي 1972 ص 7 ص 8.

5- إغلاق باب التوظيف أمام الشباب مما جعلهم يؤثرون المهاجرة على البقاء في قراهم حتى يستطيعوا تحقيق آمالهم و تتفتح الحياة أمامهم و ينعمون بها ، فهم براعم نامية تريد أن تؤتي ثمارها و تنال من الحياة حظها ، و لئن يكون ذلك إلا في اطمئنانهم إلى مستقبلهم الوظيفي .

- و إذا كانت هذه خلاصة بواعث المهاجرة فإنه يتضح من ذلك أن أسباب المهاجرة و بواعثها تنقسم إلى قسمين : قسم دافع ، و آخر جاذب فالقسم الدافع هو ظروف بلاد الشام المتأنية من ذاتها من فقر و ظلم و جور و سوء حكم و ظلم و طغيان .

أما القسم الجاذب فهو الرغبة في الحرية و الكرامة و رغد العيش و الإثراء و أثر الحملات التبشيرية و الدعايات الأجنبية .

و هكذا صور الشعراء أسباب المهاجرة و بواعثها فأداروها على ثلاثة بواعث واضحة المعالم هي الحرية و الكرامة و الطموح .

و لعل ما يفسر لنا هذا القول " أبي ماضي " موضحا أسباب الهجرة في قصيدة له بعنوان " شبح " و هي رسالة من لبنان إلى أبنائه المهاجرين .

يا شاعري قل للألى هجروني أنا ما نسيكم فلا تنسوني

ما بالكم طويتم حبل النوى يا ليت هذا الحبل غير متين

قد طفتم الدنيا فهل شاهدتم حبلا عليه مهابتي و سكوني [10]

أوردتم كمنا هي أنشقتم كأزهاري في الحسن و التلوين [11]

ثم يقول :

لبنان لا تعدل بنيك إذا هم ركبوا إلى العليا كل سفين

لم يهجروك ملالة ، لكنهم خلقوا لصيد اللؤلؤ المكنون

ورثوا اقتحام البحر عن قنيقيا أم الثقافة مصدر التمدين

و النسر لا يرضى السجون و إن تكن ذهبا فكيف مجالس من طين

و الأرض للحشرات تزحف فوقها و الجو للبازي و الشاهدين [12]

و يعلن " شكر الله الجر " إن الذي دفعه إلى الاغتراب عن بلاده هو ما منيت به من الذل و سوء الحال ، لأن الحر لا يستطيع أن يعيش في مكان أطبق عليه اليأس من كل ناحية يقول :

إيه لبنان، يشهد الله أنا ما هجرناك عن قلى و صلابة

إنما أصبح المقام بأرض الأرز م للحر ذله و معاوية

كيف لا يهجر الأنى مكانا ملأ اليأس جوه و رحابة [13]

---

[10] - المرجع السابق ص 8 .

[11] - عبد الحكيم بليع حركة التجديد الشعري في المهجر بين النظرية و التطبيق مكتبة الشباب – دار الزيني للطباعة ص 21.

[12] - المرجع السابق ، ص 22.

[13] - المرجع نفسه ، ص 23 .

مقاصد الهجرة :

قد تعرضنا إلى الأسباب التي أدت إلى هجرة هؤلاء الشعراء عن أوطانهم و توجههم إلى العالم الجديد ، و بذلك اختلفت مقاصد هجرتهم فمنهم من توجه إلى أمريكا الشمالية و منهم من توجه إلى أمريكا الجنوبية فاختلف بذلك إطار البيئة الجديدة اجتماعيا و طبيعيا .

أولا :إلى أمريكا الشمالية :

فالجالية العربي في نيويورك ضغطت عليها الحياة الصناعية في المدينة الكبيرة ، و تركتها تسكن في أحيائها المهملة ، وفي أقبائها العفنة ، و تتلمس رزقها يشق الأنفس ، و يكاد الغرب المادي في نيويورك يزهق أنفاس الشرقي الحالم بين أفراد هذه الجالية ففضلا على أنه رأى أحلامه بالثروة و الحياة الرافهة مهدرة بين عينيه لم يجد سلاما في النفوس و لا غبطة في المجتمع ، و لا تعاطفا بين أبناء مدينة يشهدها الواقع المادي من كل أطرافها و لا يترك للحالمين الذين وفدوا من بلادهم حاملين معهم بذور الرومنتيكية سبيلا رحبا بين دخان المصانع و ضجيج الآلات .

و لذلك استثنينا جبران رأينا كل أعضاء الرابطة القلمية عاشوا فقراء ، و ماتوا فقراء .[14]

---

[14] - أنس داوود التحديد في شعر المهجر ، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر القاهرة 1967 ، ص . ص 51 .52.

فالشعراء الذين استوطنوا نيويورك قلم تكن الطبيعة حية في نفوسهم إلا بالخيال و الشوق و الذكرى ، أو بالرحيل إليها بين الفينة و الفينة تشدنا للراحة و انتجاعا لمواطن الجمال و الإلهام .

و قد خلص " جورج صيدح " من المقارنة بين تأثير كل من البيئتين على نفوس المهاجرين إلى أن البيئة الأمريكية في الشمال أوى من صناعة المهاجر العربي ، فهي تخضعه مع الزمن لأخلاقها و عاداتها و تفرقة في تيارها ، فالتقدم الحضاري في الولايات المتحدة الأمريكية قد أصاب المهاجرين إليها بما يشبه الدهشة و الدوار ، و جعلهم يحسون أنهم أمام حضارة جديدة عليهم ، تختلف جذريا مع الطور الحضاري الذي عاشوه في بلادهم ، مع الأسس الفكرية و المظاهر المادية لحضارتهم .إن هذه الهجرة كانت لشعراء يختلفون في ظروف هجرة كل منهم ، و في نوع ثقافته و لون طموحه ، فضلا عن إخلافهم في المؤثرات الوراثية و النوازع النفسية .فشاعر مثل ميخائيل نعيمة هاجر إلى أمريكا للتزود من المعرفة ، و نال شهادتين جامعيتين في الآداب و الحقوق ، و كان حضه الثقافي أن أجاد اللغتين الروسية و الإنكليزية ، ثم أتيحت له فيما بعد فرصة الاستماع في إحدى الجامعات الفرنسية ، هذا إلى جانب العربية التي أتقنها في وطنه ، و هذا كله ما طبع الهجرة إلى أمريكا الشمالية .[15]

ثانيا :إلى أمريكا الجنوبية :

---

[15] - المرجع السابق ص 53 . ص 56 .

إن الهجرة إلى أمريكا الجنوبية كانت متأخرة عن الهجرة إلى أمريكا الشمالية فقد أختلف الرواة في تحديد المهاجر الأول من الذين وطئوا أرض البرازيل و الأرجنتين في أمريكا الجنوبية .[16]

و أدباء المهجر الجنوبي قلما عانوا من الحرمان و من الصراع المادي القاسي الذي صدم الشماليين ، بل إننا نجد بين شعراء الجنوب من هم من كبار الأثرياء ، ذلك لأن الحياة في البرازيل كانت أقل عناء ، و المعيشة سهلة و الرزق ميسور و باب الأمل بالنجاح واسع .

و الذين استوطنوا البرازيل عاشوا في بيئة طبيعية جميلة تضاهي في جمالها مع اختلاف في المظهر و الطابع تلك البيئة الطبيعية الجميلة التي اضطروا إلى الهجرة منها .....فضلت الطبيعة في نفوسهم حية بالواقع .

يصف الشاعر " شكر الله الجر " عاصمة البرازيل مفتونا بجمالها فيقول : المنفردة بفتنتها ، المدلة على عواصم الدنيا ، بجمالها الطبيعي الساحر .....بشواطئها الذهنية ، و جذورها الرمادية ، و خلجانها الزرقاء ، و قصورها البيضاء الجاثمة كالحمائم بين الشجر"[17]

فالبيئة الأمريكية الجنوبية تتأثر بطاقة المهاجرين العرب أكثر منها تؤثر طاقتها فيهم ....فلا يشعرون بحاجة إلى الاندماج الكلي حتى و لا إلى إتقان لغة البلاد

---

[16] - عبد الرحيم زلط : العروبة في شعر المهاجر الأمريكي الجنوبي ، ط 1 دار الفكر العربي 1972 ص 10.

[17] - أنس داوود : التجديد في شعر المهجر ص 52 ، 53 .

التي إلتجأوا إليها [18]باقون على عروبتهم و لغتهم و عاطفتهم الوطنية ما داموا قيد الحياة تمدهم المدارس و المطابع و الصحف و الأندية و المؤسسات العربية بمناعة ضد كل انزلاق في التيار الغربي ، فد كانت البرازيل مثلا تمر بدور حضاري لا يسبق كثيرا الدور الذي كانت تمر به لبنان على انفساح في الرقعة الزراعية و تيسر لأسباب الرزق ، جعل المتناقضات التي توجد في كل مجتمع مختلف لا تبدوا بالصورة الحادة التي كانت تبدو بها لبنان مما جعل المهاجرين إليها يحسون بنوع من التناسب بينهم و بين البيئات التي هاجروا إليها فالاختلاف بينهم و بينها – إن وجد – كان اختلافا في درجة الحضارة ، لا في نوعها .

إلى جانب ذلك وجد المهاجرون إلى أمريكا الجنوبية بعض المفكرين الإسبان الذين ينتمون إلى الجنس العربي يفتخرون بهذا النسب فتفتح ذلك الطريق أمامهم إلى الإحساس بالعزة القومية و المباهاة بأصلهم العربي .

و ما تزال البرازيل و دول أمريكا اللاتينية جميعا ، تعد مع لبنان و الدول العربية ضمن " الدول النامية " التي تحاول أن تخط لها طريقا في الحضارة و أن تحصل على المزيد في مكاسب العصر الحديث فد كان شعراء المهجر في أمريكا الجنوبية جميعا مسيحيون ، نزحوا من بيئة كانوا يمارسون فيها شعائر دينهم ، يتعلمون تراثه ، و يحيون بتقاليده ....فلم تكن مظاهر هذا الدين بجديدة عليهم يتح لنا هذا في قصيدة " هيكل الطبيعة " " لشكر الله الجر " إذ يقول فيها :

---

[18] - المرجع نفسه : ص نفسها .

رتلي يا طير ألحانك في هذي السفوح

هوذا النيل و قد أهرم بمشي كالكسيح

هوذا الفجر و ها رباه في الوادي تفوح [19]

ليس دليلا على تأثير مسيحية البيئة الأمريكية ، لأنه يبعد أن ترد هذه الصور في شعر مسيحي يحيا في لبنان دون أن يغادر وطنه ، فهؤلاء الشعراء حملوا المسيحية معهم إلى المهاجر في قلوبهم و استرجعوا كثيرا ذكريات الطفولة و هم يهرعون إلى الكنائس في الأعياد و في أيام الآحاد ، و في مناسبات التعميد و الزواج ، و غيرها من المناسبات التي تتصل بالكنيسة من قريب أو من بعيد و لم تكن دقات النواقيس ، و رجع صداها على ذوي الجبال إلا ممتزجة بأحلامهم و أخيلتهم كذلك لم ينسوا من ذكرياتهم أن أول كتاب تعموا رسم حروفه هو " الإنجيل " و صورة القس الذي لقنهم – مع ذلك – مبادئ العلوم و د كان للعقيدة الدينية في الشام منذ أكثر من نصف القرن " شأنها الكبير في توجيه مقدرات الفرد ، و صياغة شخصيته و اختيار ألوان ثقافته ، فليس غريبا إذن أن ينشأ هؤلاء الأدباء نشأة مسيحية يكون الكاتب المقدس معها هو الحقيقة الأولى في حياتهم .

الشاعر إلياس فرحات مثلا هاجر إليها للرزق ، و كان غلاما لا يعرف من لغته إلا القراءة البسيطة و يجهل قواعدها جهلا مطبقا .

---

[19] - المرجع السابق ص 53 ، ص 54 .

و بين هذين الخطين المتطرفين من الثقافة توزعت أقدار هؤلاء الشعراء الذين ساهموا معا في بناء صرح التجديد المهجري في الشعر العربي الحديث لهذا يجب أن تكون تلك التجربة الضخمة " تجربة الهجرة " نصب أعيننا فهي بكل أبعادها ترسل ضوءا قويا على هذا الشعر و تنير جوانبه .

فد هاجر الشعراء في من هاجروهم يحملون وطنهم ملء أعينهم و ظلت ذكرياتهم الحلوة به فلم يكن شعرهم سوى رد فع و مجموعة من التحديات لظروفهم في الوطن و في المهجر معا ، حتى كاد يكون تصويرا دراميا عميق الأبعاد لملحمة "الهجرة "[20]

[20]- المرجع السابق ص ص 55 ، 56.

الفصـــــــل الأول

خصائص الأدب المهجري

1-التجديد في الموضوع

أ-الحنين إلى الوطن

ب- التأمل

2-التجديد في الفن الشعري

أ-الألفاظ

ب- الصورة الشعرية

ج-الوحدة العضوية

د-الأوزان والقوافي

خصائص الأدب المهجري:

1-التجديد في الموضوع :

أ-الحنين إلى الوطن :

الإنسان بطبيعته موصول الوشائج بالأرض التي نبت عليها ، وبالمجتمع الذي نما فيه وشائج عميقة تتضرب بجذورها في أعماق نفسه ، لذلك الأخر وأن نجد محبة الوطن أغنية فطرية على كل لسان ، وأن نجد قدرا من هذه الغنائيات التي تلج بذكر الوطن في تراثنا العربي ، الذي ارتبطت كثيرا من مطالع قصائده الجاهلية بالأطلال ، أطلال ديار الشاعر أوديار حبيبته التي عرفها بين أفيائها ودارت ذكريات الحب والنجوى في رحابها لذلك حين نستمع الى مطالع القصائد الجاهلية ، أو حين نقرأ شعرا عربيا عن " الوطن " في التراث ، سنجد فيه لوعة الفقد ، ونحس أنه الاغتراب ،الاغتراب عن مرائع الصبا ، والفقد لكل مباهج الطفولة ومناعم الشباب فمن مطلع معلقة زهير :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمنثلـــــــم

ودار لها بالرقمتين كأنها مراجع وشم في نواشر معصم [1]

فالحنين إلى الوطن ، والبكاء على فراقه ، قديم في شعرنا العربي فنحن نجده منذ العصر الجاهلي ، إذ كانت تدور حياة العرب على الرحلة من الكلأ إلى الكلأ

[1] - أنس داوود : التجديد في شعر المهجر ،دار الكتاب العربي للطباعة والنشرن القاهرةن196، ص 171 – 172 .

، ثم جاء الإسلام وخرجوا من جزيرتهم مجاهدين في سبيل الله فبكوا ديارهم ونعوا غربتهم وأنفسهم ولكننا نرى أن هناك تجديدا في شعر الحنين بالمهجر ، وليس ذلك أنه أصبح فهل ضخما في ديوان الشعر العربي فحسب وأن ما قاله شعراء المهجر في نصف جيل يفوق كل ما قيل من هذا الشعر في تراثنا

لأنه تفوق شعراء المهجر الواضح على شعراء التراث في تصوير عواطف الحنين ومناعم الطفولة وجمال الموطن النازحين منه ومشاعر المحبة له والهيام به .بل إن الفرق الجوهري هو نوع " الغربة " التي أحس بها كل من الشعرين ، إن الشعر القديم يصور الغربة المكانية بينما يصور شعر المهجر الغربة النفسية الحائرة اللاذعة ، فهناك غربة بسيطة ساذجة هنا غربة معقدة بعيدة الأغوار غربة مفاسفة عميقة ، غربة عن العالم ، تستبطن الذات وتسير أغوار الوجود بحثا عن موطن أمن .

وفي مثل هذه الغربة يبدوا الحنين الى الطفولة حنينا إلى ميلاد جديد بالعالم ، بديلا عن الذات المفقودة في الخضم المتشابك بينما تبدو مناعم الطفولة في شعر التراث أشياء بسيطة بريئة حقيقية تبدو في شعر المهجر أشياء رمزية تختفي وراءها أو تحمل في طياتها الإيحاء إلى أشياء أعمق وأهم .

وبينما كان الشاعر العربي يعيش حياته ، ويلتحم مع مجتمعه ينهل موارده ، ثم يحن لحظة إلى وطنه الذي فارقه ، كان الشاعر في المهجر يعيش اغترابه

،ويقتات بمشاعر الحنين إلى وطنه ، فالغربة قدره ومأساته وهي لذلك كل حياته وكل شعره .

الإحساس بالغربة هناك صنع أبياتا من الشعر ، الإحساس بالغربة هناك صنع كل شئ ، فتش الشاعر عنه أمنه ، أمنه الذاتي ، في الطبيعة ، في الحب ، في الإقبال على الحياة في النكوص عنها ، في البكاء على مأساته ، في اكتشاف ذاته وطاقاته النفسية في الثورة على الاستعمار ، في الدعوة الى كيان عربي موحد ، في خدمة المجتمع والتعاطف مع الناس ، في النفور من المستغلين ، في النقمة على رجال الدين ، في كل جوانب شعر المهجر فقد كان الشاعر دائم .[2]

– البحث عن مرفأ أمين بعد أن انتزعته أمواج البحار من موطنه الصغير الجميل الذي كان يجد فيه نفسه، لذلك كان " الحنين الى الوطن " قوة سارية في الشعر المهجري ترتكز على معنى الغربة – حقيقة ومجازا –والغربة هي المحرك الأكبر في أشعارهم جميعا .

وكانت الغنائيات التي صدرت من شعراء المهجر خاصة بالحنين إحدى زوايا الشعر الذي صنعه الإحساس المرير بالاغتراب عن العالم .[3]

–فإذا ما استمعنا إلى رشيد أيوب ، قد توفر على التغني بهذا اللون استمعنا إليه ينشد في قصيدة الآمال الضائعة :

---

[2]- المرجع السابق ص 173 ، 174 .
[3]- المرجع نفسه ص 174 ، 175 .

جلست بقرب شباكي أردد طيب ذكراك

وأطوى بيد أحلام كبت فيها مطاياك

وفيها النفس حائمة ترفرف فوق مغناك

تفجر في الدجى برق تلاه مد معي الباكي

أتاركي أخا سهـــــر متى عهدي بلقياك

اذا خطرت على بالي أويقاتي وإياك

ورحت أعاتب الدنيا جلست بقرب شباكي[4]

وجدنا لونا أخر في شعر الحنين غير ما عرفناه في التراث ، ورأينا كيف أن هذه الغربة قد حطمت كل أجنحة الشاعر ، وشلت قواه، وتركته عاجزا مستسلما لا يقوى على فعل سوى "التذكر " فإذا كان هذا الشعر يحن الى أرض اللهو والطفولة البريئة ، ورفاق الصبا وحمى العشبرة ، يحن الى ذلك في وضوح ، فان شعر رشيد يحن الى أشياء غامضة في وجدان الإنسان لا سبيل الى التعبير عنها بوضوح تام ، ولنقل مثلا إن حنين رشيد فيما سبق من شعره يكاد يكون حنين شجرة انتزعت من جذورها وألقيت بعيدا عن مصدر خصبها وماءها ، وصور خضرة أوراقها وازدهار وجودها ، ثم باتت مهددة بالموت والذبول ، على هذا النحو نستطيع أن نحس شعر " رشيد " وعاطفة حنينه الى موطنه بينما نستطيع أن نفهم ماذا كان يريده الشاعر القديم ، فنحن مع شعر المهجر في مجال الوجدان

[4]- المرجع السابق ص 175 ، 177 .

الإنساني ولغته الخفية ، ومع الشاعر القديم أمام وضوح يكاد يكون تقريريا فإذا كان التعقل هو سمة حب الوطن في الأدب العربي ، فليس هو سمة حب الوطن على إطلاقه ، فهذا شعر المهجر بين أيدينا يؤكد أن عواطف الشعراء لم تكن إزاء هذا الحب وقورة ولا هادئة ولا تصر عن عقل وتنتهي الى عقل ، فأسباب هذا الحب الجارف العميق ما تزال مستعصية على التعليل أما الشعر فحسبه أن يصور لنا أسى الفرقة ، ولوعة الاغتراب ، فإذا كان الشاعر القديم أعطى وطنه شعرا مليئا بالتعليل والتعقل فلأنه يحس به من خلال لحظة تذكر ، أم شاعر المهجر فانه كان يحن الى وطنه بكل كيانه وكل مقدراته ، فالحنين كان طابع حياته ، وسمة وجوده .

–فإذا كان الحنين وهو أبسط أنواع الشعر الذي صدر عن الإحساس المرير بالغربة عند شعراء المهجر بعيدا كل البعد عن مثيله في ثراتنا فمما لا شك فيه أن شعر الغربة بكل أبعادها ومناحيها يختلف كل الاختلاف عن شعرنا العربي القديم فالحنين كان أبسط ألوان شعرهم في التعبير عن إحساسهم الأليم بالغربة ، وقد ضم بين حناياه ذكرى معاهد الصبا ، وجمال القرى اللبنانية ، وطلاقة الطبيعة الفتانة على ذر الجبال وجلال الأرز ، وروعة السهول والسفوح والوديان ، وسماحة الشيم اللبنانية ، ورقة صبية الطفولة ووفائها ثم تمجيد لبنان ، ودوره

التاريخي فنيقيا وعربيا ويتصل بذلك تعليل الهجرة بهمة لبنية حنيا وأذقتهم من الاستعمار التركي أحيانا .[5]

فمن وصف الأرز ووصف السفح اللبناني ما قاله " شكر الله الجر " :

حبذا " الأرز " في الذرى يتهادي كللت أنجم السماء هضابـــه

اتخذ السحب عرشه فارتقاها ناسجا من ثلوجها جلبابـــــه

ينتحي الطير في ذراه مقبلا فتوافي أسرابه أسرابـــــــه

خافقات الجناح تشكو عبـــاء خافقات الفؤاد تشكو اضطرابه[6]

–لقد أسهم كل شاعر بنصيب في هذا المجال ، فاختلط الحنين الى لبنان يذكره أمجاده والإشادة بجماله ، ولقد افتتن أبو ماضي في الغناء للبنان ومن ذلك قصيدته الجميلة " وطن النجوم "

وطن النجوم أنا هنـــــــا حدق أتدري من أنا

ألمحت في الماضي البعيد فتى غريرا أرعنـــا

جذلا لا يمرح في حقولك كالنسيم مد ندنـــــا

أنا ذلك الولد الـــــــذي دنياه كانت هنـــــا [7]

وقد يؤلف الشاعر مقطوعة في الحنين خفيفة الوزن ليتفنى بمصاحبة العود كما فعل الشاعر القروي كثيرا من ذلك قوله :

---

[5]- المرجع السابق ص 177 ، 178 .
[6]- المرجع نفسه ص 178 .
[7]- المرجع السابق ص 179 .

ختام أحيا غريب مالي وطن

يا يوم وصل الحبيب أنت الزمن

****

دهر بقلبي رمى سهام النوى

يكويه ربي كما قلبي كوى

هيهات غير الحمى مالي دوا

لبنان هم الطبيب للممتحـــن

ان كنت منه قريب زال الحزن [8]

هذا النوع من التعبير المباشر عن الحنين كثير في شعرهم ، غير أن الحنين قد يعبر عن نفسه في صور أخرى .

وقد يبعث على هذا الاستغراق العالم ، شئ يراه الشاعر في مهجره وثيق الصلة بموطنه ، كما نجد " نسيب عريضة " حين أبصر سلة فاكهة من ثمار الشرق فغاب عن ناظره ما كان يراه .

وطارت الروح فوق الأرض والحلل حتى أناخت على أيامها الأول

وخلت أني سمعت الصوت ينقل لي صدى نشيد أناشيد من الغزل[9]

[8]- المرجع السابق ص 179 .

[9]- المرجع نفسه ص 180.

هكذا جدد شعراء المهجر في الحنين فجاء شعرهم تعبيرا صادقا عن تجربة الغربة .

ب-التأمل :

أرهقت الغربة من إحساس شاعر المهجر بوجوده الذاتي ، فقد تحمل خروجه من وطنه مسؤولية أن يشق لنفسه وجودا كاملا ، أو بالأحرى أن تولد ذاته من جديد ، وأن يحيا في ضوء يشع من وعيه الخاص ومسؤوليته الكاملة .

-فمن واقع الشهر بالاغتراب ، انطلقت قيتارة الشعر المهجري بألحان تهدهدها الرغبة في الائتناس بالوجود الإنساني كله ، عن الأجواء الأولى التي شكلت عناصر الإحساس بالانتماء فوق تربة الوطن ، فسعت الى خلق المناخ الإنساني الذي يمكن المهجريون من أن يتنفسوا ويلتقوا بأنفاس الآخرين ، وتخطت هذه النزعة الإنسانية سياج الذاتية والفردية ، وحطمت حواجز الانغلاق واستشرفت على الوجود الإنساني كله ، هكذا استطاع الشر المهجري أن يستوعب المعاني الخلقية التي تمكن خلف السياج الإنساني محاولة فك رموزه والتعامل معه وله .[10]

فكانت غربته في عالم يستبد به الصراع المادي أذكى لإحساسه بنفسه ، ومدعاة لأن يفكر في وجوده ، ويعرض لنا في شعره صفحات من حوار الشاعر

---

[10]- محمود حامد شوكت و رجاء محمد عيد : مقومات الشعر العربي احديث و المعاصر ، دار الجيل للطباعة 14 قصر اللؤلؤة الفجالة الناشر ، دار الفكر العربي 195 .

مع نفسه ، وصوره من الصراعات التي تعرض لها في غربته عن العالم ، تكاد عند بعض شعراء المهجر ، تراجم ذاتية لا نظير لها في شعرنا من قبل ....[11]

–ولقد عبر جبران خليل جبران عن لهفته العارمة الى المجهول ، وعن شوقه الظامئ الى اقتحام الغيب ، وعبر عن إحساسه بغربته النفسية عن العالم وبما يعانيه من الوجود في قصيدته " البلاد المحجوبة " التي يخاطب النفس في مطلعها قائلا :

هو ذا الفجر فقومي ننصرف عن ديار ما لنا فيها صديق

ما عسى يرجو نبات يختلف زهره عن كل ورد شقيق

وجديد القلب أنى يأتلـــف مع قلوب كل ما فيها عتيق

هو ذا الصبح ينادي فاسمعي وهلمي نقتني خطواتـــه

قد كفانا من مساء يدعـــي أن نور الصبح من آياته[12]

ويبدو حيرته وشكوكه في حقيقة هذا المرفأ النفسي في قوله :

يا بلادا حجبت منذ الأزل كيف نرجوك ومن أي سبيـــل

أي قفر دونها أي جبـــل سورها العالي ومن هنا الدليل ؟

أسراب أنت أم أنت الأمل في نفوس تتمنى المستحيـــل ؟

أمنام يتهادى في القلـــوب فإذا ما استيقظت ولى المنـــام

---

[11] - أنس داوود : التجديد في شعر المهجر ، ص 184 .

[12]- المرجع السابق ص 184 ، 185 .

أم غيوم طفت في شمس الغروب قبل أن يفرقن في بحر الظلام [13]

في أكناف الطبيعة ورأى الغاب مثوى للحياة الناعمة بمسرات العدالة والحرية والمساواة ، واذا كان في كثير من نثره قد ألج على هذه الفكرة ، وقد هجا المدينة هجاء مرا لاذعا ، فانه في هذه القصيدة لا يبحث عن " البلاد المحجوبة "التي يمضي الحنين إليها خارج ذاته لأنه يجدها أخيرا أمنة تشغل بها الروح ، وينبض بها الوجدان ، وسنظل كذلك بومضها ونبضها ، وستظل الكائن البشري متحرقا الى مرفأ مجهول ليس من سبيل للوصول إليه .

وبين الخلاص بالموت والخلاص باستيطان النفس الإنسانية ، أو اللجوء الى إحدى قواها " كالخيال " والانصراف عن عالم الواقع ، يتردد شعراء المهجر ، فنجد " الغاب " مرفأ أمينا لنفوسهم الكليمة في المدن ، ينشدون في رحابة الحياة الفطرية الوادعة .

نجد ميخائيل نعيمة ينشد خلاصه النفسي بالانصراف عن العالم المرئي ، ومحاولة استبطان ذاته ، والاستماع الى ما يساورها من أشجان ورصد خلجاتها وانفعالاتها فيقول:

يا مرسل الألحان من عوده سحرا يهيج الصب حتى الجنون

اذ رأيت الرأس متى انحنى والعين غابت خلف ستر الجفون

فلا تقل ذي حال ولهان

---

[13]- المرجع السابق، ص 185 .

لا ، لست بالولهان يا صاحبي فالقلب من جامد كالجليـــــــــد

لكني مصغ لنفسي ، ففـــــــي نفسي أوتار ، وفيها نشيـــــــد

فاضرب ودعني بين ألحاني [14]

–ونجد " نسب عريضة " هو الأخر يحس بأن مجاله التأملي الأثير هو ذلك العالم المتشعب للمتضارب الذي يضمه بين جوانحه ، وأن رسالته الشعرية هي متابعة ذلك العالم وما يحول فيه من صراع ، وما ينشب بينه وبين العالم الخارجي من قضايا ومتناقضات ، ويحس بأن عالم النفس الداخلي بثرائه وعمقه هو الأجدر بالمتابعة والتملي ، وداخل النفس عاش " نسيب " وفي هذا الكون المجهول أطال الـــتأمل فكان شاعر الفكر الدقيق الحائر في أسرار الكون ومغالطات الحياة قد أدى به هذا الاهتمام بعالمه الداخلي ، الى أن يصنع لنفسه دنيا غير دنيا الناس ، وعالما يفيء إليه إن ألم به هم .

لم يكن خلاص الشاعر " رشيد أيوب " من حيرته بالتأمل في بواعثها أو في أسرار النفس الإنسانية وقواها المتصارعة ، أو في الحياة بعامة وما يسودها من مآسي ومشكلات ، بل ان خلاصه كان بالالتجاء الى عالم الأحلام ينسي فيه نفسه وحياته وحياة الناس جميعا ، لأن الخيال ينسج له عالما عامرا بالفتنة والجمال كما يقول في قصيدته " قصرى"

ما لذة العيش برعي النجـــوم وبين أسى الشاكي ، ورشف المدام

[14]- المرجع السابق ص ص 186 ، 187 .

اذ تطرد الأحلام جيش الهموم إذ تنجلي الآمال تحت الظـــــــلام

دبي رعاك الله بنت الكـــروم وغلغلي في القلب حتى ينـــــــــام

على بساط مدفوق الغيـــــوم حاكته أيدي النفس من وجـــــــدها [15]

على أن النفس تظل في جوهرها برغم مآسي الحياة عذرية بريئة ، لا تعلق بها شائبة من أدران الوجود ، وفي ظل غيبوبته الروحية التي ينشدها في عالم الأحلام يلتقي بها صورتها النقدية العذراء الباقية على عهدها ، والشاعر " ندرة حداد " إن كان يتسلى باصطناع الأحلام ناسيا هموم الحياة كصاحبه " رشيد أيوب " إلا أنه يحس بألا جدوى هناك من العالم الموهي فكل مافيه من منى يبعثر على أرض الواقع ، كما تنتهي حياة الناس على الأرض الى نهايتها المحترمة .

حياة الناس واحدة ومكتوبا لها الفشل

فأبقى وما بها عدم وأضيع مابها أمل [16]

فالفشل هو قدر الحياة الإنسانية ، ومصيرها الذي لا مفر منه و لاريب في انبعاث هذه التشاؤمية المتطرقة هو ما لقيه هذا الشاعر من ضياع وحرمان ، ولكن الذي يستحق الإعجاب أن نزعة هذا الشاعر الإنسانية ومحبته ظلت نزعة مشرقة في شعره ، ولم تنزل منه شوائب المحن التي مر بها ، وقد كان " إيليا أبو ماضي " أكثرهم تأملا وشكا وتساؤلا خاصة في قصيدته " الطلاسم " والتي

---

[15]- المرجع السابق ص 189 .

[16] - المرجع نفسه : ص ص 189 ، 190 .

تحتوي على ما يزيد على مائة سؤال يسألها " أبو ماضي " عن مجيئه الى الدنيا ؟ ويتساءل أجديد أم قديم ؟ وهل هو حر طليق أم أسير في قيود ؟ويسأل عن طريقه في الحياة ؟ وعن معرفة الوجود ، ويذهب ويسأل البحر والدير ويقف بعين المقابر دهشا متحيرا ويمر بالقصر والكوخ فيمطرها بوابل من الأسئلة ، ويطوف بالفكر ويسأل عنه ، وينتهي الى أنه يشهد في نفسه صراعا عنيفا وعراكا محتدما يقول :

جئت لا أعلم من أين ، ولكن أتيت

ولقد أ بصرت قدامي طريقا فمشيت

وسأبقى سائرا إن شئت هذا أم أبيت

كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي ؟

لست أدري

وطريقي ما طريقي ؟ أطويل أم قصير ؟

هل أنا أصعد أم أهبط فيه و أغور ؟

أأنا سائر في الدرب أم الدرب يسير ؟

أم كلانا وافق و الدهر يجري

لست أدري[17]

ويمضي بعيد عن شكوكه وطروحاته وأسئلته عن كل شئ في حيرة وجها له :

---

[17] - إيليا أبو ماضي : ديوان الجداولkط6،دار العلم للملايين،بيروت1987، ص 139 .

والجواب ....لست أدري ؟

وينمو الشعور النفسي بانسحاق الإنسان أمام الحياة ، وبأنه عبد لهذا الكون وبغرائبه ومطالبه وحاجاته التي لا تقضى وبعمق الحس المأساوي في الصراع بين الروح والجسد فيبلوره .

وفوزي المعلوف في مطولته على " بساط الريح " حين يقول :

أنا عبد الحياة والموت ، أمشي مكرها من مهودها لقبوره

عبد ما تحتوي الشرائع من جو ويخط القوى كل سطـــوره

لبيراع لم الضعيف له حبـــر ونوح المظلوم وقع صريره

أنا عبد القضاء عبد الهنـــاء وشفاه ، بشيره ونذيـــــره

عبد عصر فن التمدن لهـــو أضله عهد لباسه بقشوره [18]

كذلك نجد الشاعر سليم الخوري " القروي " يجعل الطبيعة ملاذه ومهربه النفسي فيجعلها صورة لذكرياته ورؤيا لضميره ، فكأن ما مضى وما سيمضي ماثل أمامه ، ويحس وكأنه يعانق الأفق ومافيه ففي قصيدته " أعناق الوجود "

من لنفس تود لو تعمر بشئ أنا أستطيع ضم الوجود [19]

تطلع الشمس يشجيني بهاها وتلوح النجوم أرعى سناها

أي واد ولم أسام حصاه وهضاب ولم أباكر ذراها

---

[18] - محمود حامد شوكت ، رجاء محمد عيد ، مقومات الشعر العربي الحديث و المعاصر ، ص 210.

[19] - المرجع نفسه ، ص 213 .

وغصون ولم أغرد عليها ودروب ولم أمضي جناها

غير أن عمري قصير وفي الكون فنون من كل حسن جديد

مثلوا لي هذا الوجود بشئ أنني أشتهي عناق الوجود

إن تأمل الشعراء الدائم في ذاتهم ، وفي الكون من حولهم هو الذي نما في أنفسهم نزعة صوفية من التفكير في الله ، بل من حبه مع أن تصوفهم هذا لا يخالف تصوف الشاعر العربي المسلم ، فمن جهة قد تأثروا به ، لكنهم لا يجرون دائما في اتجاهاته اذ يخضعون أحيانا لتأثيرات مسيحية ، لكنهم على كل حال يستمدون من المنابع الشرقية ما يضيئون به جوانب هذه الصوفية ، فهم لا يرفضون الحياة كما هي ، ولا يلبسون خلق الصوفية بالقدر الذي أقبلوا فيه على دنياهم على متاعها ، ومن هنا اقترب بعضهم من ذوق عمر الخيام ، وحافظ الشيرازي وأمثالهما .

نجدهم يطلبون السمو الروحي ، ويحلمون بالاتحاد مع الذات العليا وقد أخذوا يفكرون في هذا الكون الغامض العجيب ، وهذه الأديان وهذا الخالق الكبير العظيم وفي جل المسائل الحيائية التي أقلقتهم << فتساءلوا عن الوجود مبدأ وانتهاء ، وعن النفس حدوثا وفناء ، عن الزمن وقوفا وانقضاء وعن الحياة سعادة وشقاء ، وعن درب الحياة خشية ورجاء ....كما تساءلوا عن أعمالنا : أنحن مجبرون عليها أم

مخيرون فيها – وعن الموت : أهو ذلك الحادث الشنيع الذي يخافه الناس أم هو جمال وتخلص من الأغلال ؟ وتساءلوا عن الخير والشر في الحياة ...>>[20]

لقد ظهرت هذه النزعة أكثر في شعر ميخائيل نعيمة و إيليا أبو ماضي ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، وإلياس فرحات ، وأحمد زكي أبو شادي كما ظهرت عند الريحاني وجبران في شعرهما المنثور ، رغم نظرتهم الثاقبة للكون وما فيه إلا أنهم لم يقطعوا صلتهم بربهم فهم متدينون مؤمنون بالله الى أبعد الحدود ، كما هو الحال عند مسعود سماحة الذي يتجه الى الله قائلا :

الملك ملك والبهاء بهـــــاك والأرض أرضك والسماء سماك

الكون مع ما فيه من متحرك أو ساكن قد كونته يـــــــــداك

لا مسعف إلاك ، لا متساهل إلاك لا متسلـــــــــــــط إلاك [21]

وفي قصيدته " ابتهالات " لميخائيل نعيمة التي يقول فيها :

كحل اللهم عينـــي

بشعاع من ضياك

كي تـــــــــراك[22]

هكذا جدد شعراء المهجر في تأملاتهم ، فلقد تأملوا في النفس الإنسانية وفي الكون والطبيعة وصل بهم الأمر الى التأمل في خالق الكون هذا الاتجاه الصافي

---

[20]- محمد عبد الغني حسن : الشعر العربي في المهجر ، الطبعة الثالثة مؤسسة خانجي بالقاهرة (1962) ص ص 74 ، 75 .

[21] - المرجع نفسه ، ص 46 .

[22] - ميخائيل نعيمة ، همس الجفون ط 5 دار صادر بيروت سنة 1966 ، ص 35.

الى الله ، وهذا العشق الإلهي جعل الشعراء المهجريين يصعدون من أطباق الثرى الى رحاب السموات وهذا ما جعلهم يبرعون في التجديد في مجال التأمل .

2-التجديد في الفن الشعري :

أ- الألفاظ :

إذا تناولنا ناحية التجديد في الألفاظ ، ينحصر القول في أن شعراء المهجر قد أباحوا لأنفسهم شيئا من الحرية في استخدام الألفاظ ، كما يهديهم إليها حسهم المرهف ، ويتجلى في شعرهم حسن اختيارهم للألفاظ المعبرة عما تجيش به نفوسهم من معان ، وان كانوا في بعض الأحيان يغالون في ذلك إلى حد إدخال كثير من الألفاظ الأجنبية كما هي ، مما يحدث في السمع نفرة لمن يقرأ الشعر في العربية ، وتبدو هذه الناحية واضحة في شعر رشيد الخوري ومن ذلك قوله :

يلقون " متر ليوزنا " بصدورهم ويكافحون " الشك " بالأبدان

ويعيدها الشعب المهيج كأنها تنفجر " الدنميت " بالأطنان [23]

والقارئ في ديوان الأيوبيات لرشيد أيوب يلاحظ أنه يستخدم أحيانا بعض الالفاظ الأجنبية في صورة كلمات عربية يعربها هو ويدخلها في شعره مثل قوله في وصف مدينة نيويورك .

كأني " بالصبواي" يوم تجمهرت بها الناس خلت الناس في موقف الحشير

---

[23] - محمد مصطفى هدارة : التجديد في شعر المهجر[دار الفكر العربي،،195701: ص 190.

تروح بها " الكرات " ملأى خلائقا ترجع فيها مثقلات الى الجسر. [24]

وكلمتا " الصبواي " و" الكارات "أخذتا عن الانجليزية كما يبدو وتظهر ثقافة رشيد أيوب واطلاعه على المصطلحات الجديدة حتى العلمية منها ، لدرجة أثرت في شعره حيث يقول في " أغاني الدرويش "

وقائلة قد شاع شعرك في الورى بما فيه من نوح كنوح الحمائم

فقلت لها هاتي " الأشعة " وانظري فؤادي ففيه الغم مثل الغمائم [25]

يريد أن حزنه غائر في أعماق قلبه فهو لا يرى بالعين المجردة ، ويلزمها استخدام الأشعة حتى يبين لعينها من وراء اللحم والذم ما بدا في قلبه .

وشعراء المهجر كثيرا ما يستخدمون ألفاظا تدل على ذوق موسيقي عام عندهم ومعرفة بالآلات والأنغام والألحان ، إذن فالموسيقى ليست شائعة في أنغام الأبيات فحسب بل تبرر في كلمات معينة منثورة في دواوينهم ،إنهم كثيرا ما يتحدثون عن الناي والعود والمزمار ، وكثيرا ما يخاطبون الكمنجة والقيثارة وينشئون على ألحانها أشعارهم ، وإذا حاولنا معرفة من هؤلاء الشعراء كان أكثر ميلا الى هذه الناحية الموسيقية الغنائية في شعره فإننا سنلتقي مرة أخرى بالشاعر الوجداني العاطفي " رشيد أيوب " انه يقول في ديوانه " هي الدنيا " :

هات الكمنجة هاتها الله في نغماتـــــــــــها

- نادرة جميل سراج : شعراء الرابطة القلمية – دراسات في شعر المهجر – دار المعارف بمصر 1964 ، ص 271 . [24]

[25] - نادرة جميل سراج : المرجع نفسه ص 272 .

واحد على سمعي حديث للحب في رناتـــــــــها [26]

يقول أبو ماضي في خمائله :

لا تسألوني اليوم عن قيثارتي قيثارتي خشب بلا أنغام [27]

وليس غريبا على شعراء مرهفي الحس رقيقي الشعور مثل شعراء المهجر أن يكثروا من استعمال مثل هذه الكلمات الموحية والألفاظ الرقيقة الهامسة .وقد تساهل شعراء المهجر في اللغة وما إليها ، وهذا التساهل يرجع الى عوامل معينة ، فهم : يؤمنون بأن اللغة لا غاية وان الغاية تقصد في الشعر هي المعنى والفكرة ويكفي في نظرهم ان تؤدي الكلمة تاى المعنى ايماء . ولكن ليس معنى هذا أنهم كانوا يملكون أداة اللغة ثم يتغافلون عن استخدامها تطرفا منهم في ثورتهم ، بل إن هذا يعني أنهم كانوا يملكون أداة اللغة ، ثم يتغافلون عن استخدامها تطرفا منهم في ثورتهم ، بل إن هذا يعني أنهم يقدمون الفكرة على كل شئ ، فإذا كانت لغتهم تسعفهم في التعبير عن هذه الفكرة فلا بأس بذلك وإذا لم تسعفهم فإنهم يتجاوزون عما فيها من قصور من الناحية اللغوية ما دامت الفكرة قوية والمعنى سليما .

وأهم العوامل التي هبطت بالمستوى اللغوي لشعراء المهجر هجرتهم في سن مبكرة قبل أن تكتمل ثقافتهم اللغوية العربية يضاف الى ذلك وجودهم في جو أجنبي خالص لا يتحدثون فيه العربية إلا نادرا [28]وكان من الطبيعي تبعا لهذه

---

[26] - المرجع السلبق : ص 273.

[27] - المرجع نفسه و الصفحة نفسها .

[28] - محمد مصطفى هدارة : المرجع السابق ص ص 190 ، 191.

العوامل ونتيجة للظروف التي عاشها المغتربون إذ نقع في أساليبهم على مأخذ عديدة في مضمار العربية الفصحى .

–فنجد القروي يستعمل كلمة " الحضور " بمعنى الحاضرين وهي كلمة غير فصيحة بهذا المدلول ، ويقول رياض المعلوف :

<< في قارب رشق >> بدلا من << رشيق >> كما وردت كلمة "جانح " بدلا من " جناح "لدى القروي في قوله :" طير ضعيف الجانحين صغير" .

ولدى الجر في قوله :

<< لملم النسر جناحيه وطار >> [29]

وكان خطأ جموع التكسير ، وهي سماعية م الخطأ الأكبر وهذا طبيعيا بالنسبة الى شاعر يقضي عمره في بلاد غريبة لا تلامس على سماعه فيها لغة الوطن الأم الا غرارا فقد جمع شكر الله الجر طفل على طفالي ، في قوله ، << كأن الوجود ابتسام الطفالي وحلم العذارى >>

وجمع رياض معلوف الأثيم على وزن أثامي في قوله :

" شفاه أثامي " وجمع شفيق معلوف حار على وزن حرار في قوله :

" أشواق حرار " وجمع كل من نعمة قازان والشاعر المدني البحر على " أبحار ".

[29] - عمر الدقاق : ملامح الشعر المهجري ، ص 308.

وقد يفسح الشاعر قصيدته لدخول بعض كلمات دارجة في لغة العامة من نحورها عمد اليه فرحات في قوله : <<وجه وحش>> أي دميم و" الداية " بمعنى المراد القابلة أو ايراد شكر الله الجر " فتنا الطريق " أي " جرناه"

-وقد عرف شعراء المهجر بإكثارهم من اشتقاق صيغ المبالغة على وزن " مفعال " مثل : منيات ، مكسال ، ملسان ، ممراح ، ممساح .

-وربما صيغ بعضهم الى اشتقاق أفعال جديدة من الأسماء الجامدة ، فقد اشتق شكر الله الجر من الكهرباء فعل "كهرب" واشتق فرحات من الفرنسيين " تفرنس" ومن الفينيقيين " تفينق"ومن الخاروق " تخورق" ووضع فرحات كلمة " المواج" مقابلة لكلمة " الراديو" ووضع القروي كلمة " الطواحة" مقابل لكلمة" البارشوث" .

-وهذه المحاولات على قلتها تنم على رغبة في تجديد العربية وحرص على تطويرها واعنائها ، ولكن هذه الرغبة في التجديد كانت تتسم بالاعتدال لدى أكثر شعراء المهجر وقلما بلغت حدد التطرف والجموع فقد كان أكثرهم غيورا على العربية شديد الحفاظ على مقوماتها كما كان يحس في الوقت نفسه بحاجة قصوى الى تجديدها .[30]

الصورة الشعرية :

[30] - المرجع السابق : ص ص 308 في 311 .

إذا كانت الموسيقى أهم فارق بين لغة الشعر ولغة النثر ، فان أهم خاصية للغة الشعر هي التعبير بالصورة ، لأن الشعر يتخذ طريقه الى التأثير على قارئه بالإيحاء إليه ، وقد تتآزر الموسيقى والصورة في الشعر –بل يجب أن تتآزر على التعبير عن تجارب نفسية وخواطر وجدانية لا يفي النثر التعبير عنها .

والتعبير بالصورة خاصية الشعر منذ كان ، غير أن عصرنا قد أضاف الى العصور العربية السالفة مجموعة من الأبحاث النقدية الهامة التي أولت عنايتها عناصر الشعر ، وعمقت مفهوم " الصورة الشعرية " ونادت بالبعد عن التعبير المباشر في الشعر ، وعن لغة التقرير والتبرير الذهنيتين لخلوهما من الإيحاء بالمعنى وهو سبيل التعبير الشعري الصحيح .

وفي شعر المهجر كان الرواد الثلاثة (الريحاني ، جبران ونعيمة) من أنصح الفاهمين للتعبير بالصورة ولهذا فإننا نرى شعراءنا بالمهجر يعتمدون في شعرهم على التعبير بالصورة عن وعي وبصيرة ، وأنهم ينتقلون من الصورة الجزئية الى الصورة الكلية التي تصور مشهدا كليا ، أو توضح شيئا مترابطا فيما يمكن أن تسميه لوحة وينتقلون من اللوحة الى وحدة القصيدة برمتها ، حيث تعتبر القصيدة صورة موحدة . وتعتمد اللوحة بدورها على مجموعة من الصور

الجزئية التي تتآزر على رسم لوحة ويتجلى هذا في شعر شعراء المهجر الشمالي والجنوبي منه[31] ومن ذلك في قول نعيمة مخاطبا نفسه:

إن رأيت الفجر يمشي خلسة بين النجوم

ويوشي جبة الليل المولى بالرســـــوم

يسمع الفجر ابتهالا صاعدا منك إليه

وتحرى كتبي هبط الوحي عليه

بخشوع جاثيـــــــــــــــة

هل من الفجر انبثقـــــــــت ؟[32]

فهو يريد أن يعبر في مجموع هذه الأبيات عما يحسن من وشائج الصلة العميقة بين نفسه وبين الفخر، يريد أن يتأمل في أسباب هذه الصلة العميقة بين نفسه وبين الفجر ، يريد أن يتأمل في أسباب هذه الصلة ودواعيها ، وأن يسائل نفسه هل انبثقت في الفجر حتى ليستولي عليها الخشوع الذي يلوح عليها عندما ترى الفجر ، فالشاعر أراد أن يصور فيها صلة نفسه بالفجر ، وقد اتخذ في سبيل هذه الصورة الكلية صورا جزئية أشبه ما تكون بالخطوط والألوان في يد الرسام ، تتضافر كلها على خدمة هدفه العام ، ونشر الإحساس والحركة واللون في جوانب اللوحة .

---

[31] - أنس داود : التجديد في الشعر المهجري ، ص 355 ، ص 357 .

[32] - المرجع السابق ، ص 358 ، 259.

يصور ابتهالة نفسية ، فيعدل عن التعبير المباشر بأن نفسه عندما رأت شيوع الضوء الخافت في الأفق قد ابتهلت الى الفجر ، الى التعبير بأن الفجر يسمع ابتهالا صاعدا منها إليه .

ولنقرأ مثلا أخر لشاعر يجيد تكوين " اللوحة الشعرية " هو " فوزي معلوف" ، فان في شعره كثيرا من هاته اللوحات كل لوحة منها شديدة التماسك فيها بينها ، يظل البيت بعد البيت يظيف ملمعا لها كما يضيف الراسم بالخط بعد الخط ملامح الى صورته حتى تكتمل هاهو –مثلا– يصور لقاءه مع حبيبته في ظل لبصمت .

ها جناح المساء يغمرنـــا فاصمتي يا مياه واتئدي

هو رب السكون فاحترمي صمته إن صمته أبـــــدي

أفلم تشعري نسمتـــــــه صعدت زفرة ولما تزد ؟

أو تبصري جوانحنـــــا ليست منه أروع البرد ؟ [33]

ولعلنا من خلال كل صورة من صور المقطوعة ، نحس بذلك الصمت العميق الذي يلف الحبيب ، بينما الرغبة تعترك في نفسيهما ، والتوق يظطرم في الأضلاع ولكن كل شئ يظل ساكنا ، إلا بعض موجبات باصطفافها ذلك الصمت ، فينهرها الشاعر : فاصمتي يا مياه واتئدي .

---

[33] - المرجع السابق - ص 360 .

وللشاعر القروي في شعره كثير من هذه اللوحات المتماسكة ، وهو يجيد تصوير حركة الجموع ، ويروقه أن يراها تقف خاشعة لدى مظاهر الجلال والقداسة

ففي قصيدته " القيصر وتولستوي " يقدم هذه اللوحة

في بقعة وسط الحقول حصيبة بيت على ركن الوداعة شيدا

طلق الفناء فليس يحرس بابه جند وليس طريقه مســـــدودا

زحفوا ليه كموج بحر زاخر يتلون آيات السلام نشـــــيدا

وقفوا كحملان لدى أعتابه من بعد أن خاضوا الصفوف أسودا

يترنمون بحمد أكبر مصلح ويردون هتافهم تردـــــدا

حتى اذا ظفروا برؤية رسمه خروا لديه ركعا وسجودا

فغدا تلستو في ثراه قيصرا وغدا القياصر تبعا وجنودا [34]

ففي هذه اللوحة يصور الجموع ، مأخوذة أمام ما تراه من مظاهر الجلال والعظمة التي تحوم حول قبر تولستوي ، وتشع من جنبات الأرض المقدسة في فلسطين وقد أخذ عليها ذلك الجلال أنفاسها فسكنت بعد ضجة وخشعت بعد هرج ومرح وإحساس بالعنفوان ، وكذلك نجد شاعرا أخر من شعراء المهجر برع هو الأخر في الصورة الشعرية " اليأس فرحات " أجاد تصوير الحركة وقدم صورة

---

[34] - المرجع نفسه : ص 361.

طريفة لكلبه "غضروف" وفي مطولته " أحلام الراعي " التقط فيها أدق ملامح هذا الحيوان في جريه ونكوصه وتواثبه وتدلله .

كما أن أبا ماضي كان يجيد التصوير عندما يكون متصلا بمناظر التراجع والنكوص والانتكاس ولذلك فان صوره محطمة مرهونة بأسباب الموت فليس لدى الشاعر أبي ماضي تصوير للنشوة العارمة ، أو التفتح المطلق على لذات الحياة ، بل لديه قدرة وبراعة في تصوير الانهزام في حياة الإنسان وفي الطبيعة ، حتى ليبدو الفناء نذيرا عاما في شعر أبي ماضي ، ففي قصيدته " الطين "

الإنسان كل قدرة أمام الكون وأمام [35]مشاهد الطبيعة في نعمة قاسية لاذعة ، تتعالى منها قهقهة السخرية والتشفي :

أنك القصر دونه الحرس الشاكي ومن حوله الجدار المشيد

فاضح الليل أن يمد رواقـــــا فوقه ، والضباب أن يتلبد

فانظر النور كيف يدخل لا يطلب إذنا فما له ليس يطرد ؟

مرقد واحد نصيبك منه أفــتدري كم فيه للذر مرقد ؟

****

أنك الحقل ؟ هذه النمل تجني للشهد من زهره ولا تتردد

وأرى للنمال ملكا كبيـــرا قد بنته بالكدح في وبالكد

---

[35] - المرجع السابق : ص ص 361 ، 362 .

أنت في شرعها دخيل على الحقل ولص جنى عليها فافســد

لو ملكت الحقول في الأرض طرا لم تكن من فراشة الحقل أسعد

أجميل ؟ما أنت أبهى من الوردة ذات الشذى ولا أنت أجود

أم عزيز ؟وللبعوض من خديك من قوت في يديك المهند[36]

يظل أبو ماضي على هذا الإيقاع القاسي يجرد الإنسان من جماله وعزته وغناه وقدرته ، وينصب أمامه جمال الدودة ، وقدرة البعوضة وفضل الدودة وعجزه التام أمام مظاهر الكون وأمام ضرورات الطبيعة البشرية ، ويترك النهاية نهبا لمشاعر الحيرة والتساؤل .

ومما لاريب فيه أن تصل هذه الكوكبة من الشعراء الى مجموعات طريفة مبتكرة من الصور الشعرية أما ما ابتكره جبران فلا يكاد يعد ومن أشهر صوره : عويل الهاوية ، حقل الجمال ، عرائس الفجر ، ثوب السكوت ، النور المظلم ، الظلمة المنيرة ، حضن الأبدية ، دواعي الثرى ، الشفق الأزرق ، الكآبة ظل اله لا يمكن في جوار القلوب الشريرة ، ويصور الشاعر القروي " الداء العياء " الذي ألم بوطنه ودفعه الى الهجرة ، فيلدغ في الصورة بعد الصورة ، فهو ميت مع أنه مفتوح العينين والشقاء يلثمه والأسى يعضه ، ويحاول أن يجس يد الرجاء فلا يحس لقلبه نبضا :

عجيب أنني ميت وعيني لم تذق غمضا

---

[36] - المرجع نفسه : ص 362.

يصافحني الشقا ويلثمني الأسى عضا

أحس يد الرجاء فلا أحس لقلبي نبضـــــا

ولا حد لما أبدعه الشاعر شفيق معلوف من صور ، وما رسمه من لوحات في مطولته " عبقر " فهي برمتها مجموعة من الصور واللوحات المبتكرة يحس فيها القارئ أن الشاعر قد استحال – بحق – الى رسام والى نحات والى ألة تصوير حساسة واعية .

ومن الطبيعي أن يبدع هؤلاء في الصورة الشعرية ، فان التجديد في التجربة الشعرية يرتبط ارتباطا ضروريا بالتجديد في الصورة ، فالصورة لبنة العمل الشعري .

الوحدة العضوية :

من أول دعائم التجديد في الشعر العربي الحديث ، ما ذهب اليه مطران والعقاد ، وميخائيل نعيمة من الدعوة الى " وحدة القصيدة " وقد ذهب هؤلاء الثلاثة الى التعريف بهذه الوحدة والى لفت النظر الى أن القصيدة كانت تشتمل على أغراض شتى ، ومقاصد متباينة وكأن البيت لا يمت بصلة وثيقة الى ما قبله ولا الى ما بعده وربما اجتمع في القصيدة الواحدة من الشعر ما يجتمع في أحد المتاحف من النفائس ولكن بلا صلة تجتمع إلا لتنافر وتتناكب في ذهن القارئ .

الحقيقة أن البصر بوحدة القصيدة بصر بعمق النظرة الى الحياة وتفهم الطبيعة والتجربة الشعرية معا ، فوحدة القصيدة دليل على التكامل النفسي الذي يتمتع به صاحبها ، وعلى أنه ينظر الى الأمور نظرة تربط الأسباب بمسبباتها وتدرك الصلة بين الجزئيات والكليات ، وترى كافة جوانب الموضوع ، الواحد ، وهي نظرة تليق بعصرنا العلمي الذي يتناول ظواهر الوجود ظاهرة ظاهرة ، ويبدأ البحث والفحص والاستقصاء بأصغر الجزئيات ، فإذا كان الشاعر سبيل إنشاء قصيدة يعبر بها عن مأساة عاطفية أو أسرية أو اجتماعية ، وحشد نفسه في قصيدته لتجسيم ما يعانيه من أسى واتخذ من الوسائل الفنية ما يبلغ به مراده من التعبير عن أساه والتأثير على قارئة ، فان ذلك الاحتشاد دليل على عمق أساه ، وعلى أن هذا الأسى يستغرق نفسية الشاعر وذلك الاحتشاد يتيح له كذلك دقة التعبير عن تجربته ، وحشد طاقته الفنية ، من اصطناع خطة ما لقصيدته ، واختيار وسائل التعبير وصوره ، للتأثير على قارئه دون أن يبدد طاقاته النفسية والفنية بمحاولة استرضاء أحد خارج تجربته أو التحدث عن مواضع أخرى لا تمت إليها بصلة ، فالشاعر الذي يصف الطبيعة يخلص منها الى المديح ، ويظفر بما كان النقاد القدامى يعجبون به من حسن التخلص من غرض الى غرض حين يقول :

خلق أطل من الربيع كأنه خلق الإمام وهديه المنتشر[37]

هو شاعر يزيف تجربته النفسية ، وإحساسه بالوجود ، وإما أنه يصطنع ذلك المزيف منذ بداية القصيدة الى أخرها ، وما ذلك اللجوء الى الطبيعة ألا تعله للمديح وليس على رغبته نفسية ومحبة أصلية لها وأما أنه يصطنع ذلك الزيف منذ أن حاول التخلص من الطبيعة الى المديح ...

فالقصيدة باشتمالها على هذين الغرضين البعيدين تنطوي على زيف واصطناع لا يليق بالشاعر أن يلجأ إليهما ، فإذا استبعدنا الزيف والاصطناع ، رأينا أن الشاعر يصدر في كل غرض ، من الأغراض التي تنطوي عليها قصيدته من ميوله ورغباته وتجربته الخاصة كانت قصيدته أشبه بمتحف يضم الأشياء المتناقضة وكانت قصيدته في الحقيقة مجموعة من القصائد التي ينبغي أن تجمع في إطار واحد ، وكان هذا الشاعر يفتقد الى عمق النظرة الى الحياة التي كانت حرية الى أن تهديه الى أن يقول قصيدته في موضوع واحد ، وأن يعمق بها شيئا معينا وجهة نظر محددة وتجربة واضحة ، يعمق مدلولها ، وينمي الإحساس بها في نفس القارئ وهكذا ترى أن افتقاد القصيدة الى الوحدة العضوية يعني افتقادها الى صدق الشاعر أو الى عمق تجربته .

لم تكن القصيدة الجاهلية وحدة عضوية في شكل ما من الأشكال لأنه لا صلة فكرية بين أجزائها فالوحدة منها خارجية لا رباط فيها الا من ناحية خيال الجاهلي

---

[37]- أنس داوود : المرجع السابق ، ص ص 369 ، 370 .

، وحالته النفسية في وصفه لرحلته لمدح الممدوح وكان لهذا الرباط الواهي مبرر من المبررات في العصر الجاهلي ثم صار تقليديا على مر العصور .

ولهذا كان من الطبيعي أن يدعو المجددون في أوائل القرن العشرين الى وحدة القصيدة ، وكان من الطبيعي أن توجد في شعرهم .

غير أن الشعر الخطابي بالمهجر – الشعر القومي – الذي يلم فيه الشاعر بأغراض شتى من هجوم على المستعمر الى مدح للمناضلين ، الى ذكر لأمجاد العرب التاريخية ، الى تهديد ووعيد ، لا تحقق فيه وحدة عضوية ، بل تتحقق فيه وحدة خارجية يفترضها الشاعر كالقصائد القديمة ويخلص فيها من غرض الى غرض ، وقد تتفق الوحدة العضوية في بعض مقطوعتها فقد تتآزر مجموعة من الأبيات الذي يقضي فيها كل بيت الى الذي يليه للتعبير عن غرض معين فتبدو هذه المجموعة كلا متلاحما ، وتكون أشبه بالقصيدة القصيرة غير أنها مندرجة مع قصائد أخرى ليست هناك إلا روابط واهية بينها ، غير أن الشعر الخطابي بالمهجر نجد الكثير الذي تتحقق منه هذه الوحدة وبخاصة إذا سرت في القصيدة روح الحكاية ، واعتمدت لذلك على بداية ومسار ونهاية لا مفر منها .

فان مدرسة المهجر من المدارس الحديثة التي عمقت الدعوة الى الوحدة العضوية بالقصيدة نقدا وشعرا ، بل لقد ذهبت الى وحدة " المجموعة الشعرية " فأصبح ديوان الشعر يضم طائفة من القصائد ذات طابع معين يكاد يكون مشتركا

بينهما وأصبح له اسما يمت بصلة الى هذا الطابع ، ونلمس ذلك في ديوان " أوراق الخريف " لندرة حداد " الأرواح الحائرة " لنسيب عريضة " أغاني الدرويش " لرشيد أيوب " وهمس الجفون لنعيمة " ، " الأعاصير" للقرويي ، " أحلام الراعي " لالياس فرحات .

وهناك نوعان من الوحدة في القصيدة :

نوع يرتبط فيه البيت –أو المقطوعة –بموضعه من القصيدة ارتباطا ضروريا بحيث يختل النسق إذا تقدم أو تأخر عن مكانه ، ولعل هذا أكثر وجودا في القصائد التي تبنى على عنصر القص أو القصائد التي تحكي حديث بعينه ، وهذا ما تستطيع أن نسمي الوحدة به ، وحدة عضوية حيث يكتمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة بأنغامه بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أو خل ذلك بوحدة الصفة وأفسدها ، فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم مقام جهاز من أجهزته .

ونوع يتكون من تداعيات شعورية ، فمع أن القصيدة فيه لا تتخلى عن وحدة الهدف العام ووحدة الموضوع ، ووحدة وسائل التعبير ، فان وجود البيت – أو المقطوعة – في موضعه ليس وجودا ضروريا ، فلو وضعت بعض الأجزاء أو الأبيات مكان الأخرى لم تختل وحدة القصيدة ، وأحدثت نفس الأثر ، ويندرج تحت هذا النوع معظم شعر التأمل واستبطان النفس عند نعيمة ونسيب عريضة

وشعر الغربة والحنين عند رشيد أيوب وسائر شعراء المهجر ولا نستطيع أن نطلق اصطلاح " الوحدة العضوية " الا على قصائد النوع الأول ، لأن الوحدة العضوية تقتضي مع تكامل القصيدة بأجزائها وجود كل جزء في موضعه بالضرورة لذلك فإننا نرى أن النوع الأخير به نوع من الوحدة ولكنها دون الوحدة العضوية .[38]

فمطولة الشاعر " إيليا أبي ماضي " << **الطلاسم** >> لا تتأثر حين تضع الجزء الخاص بين المقابر قبل الجزء الخاص بالدير أو بعد الجزء الخاص بالكوخ وبالقصر أما قصائده " مثل الضفادع والنجوم " " والأشباح الثلاثة " وكثير غيرها فثمة ضرورة لا غنى عنها في وجود كل بيت بموضعه وهذه هي الوحدة العضوية الحقيقية .[39]

2-التجديد في الفن الشعري :

أ-الألفاظ :

إذا تناولنا ناحية التجديد في الألفاظ ، ينحصر القول في أن شعراء المهجر قد أباحوا لأنفسهم شيئا من الحرية في استخدام الألفاظ ، كما يهديهم إليها حسهم المرهف ، ويتجلى في شعرهم حسن اختيارهم للألفاظ المعبرة عما تجيش به نفوسهم من معان ، وان كانوا في بعض الأحيان يغالون في ذلك إلى حد إدخال

---

[38] - المرجع السابق ، ص ص 370 ، 371 ، 372 .
[39]- المرجع السابق ، ص ص 372 ، 373 .

كثير من الألفاظ الأجنبية كما هي ، مما يحدث في السمع نفرة لمن يقرأ الشعر في العربية ، وتبدو هذه الناحية واضحة في شعر رشيد الخوري ومن ذلك قوله :

يلقون " مترليوزنا " بصدورهم ويكافحون " الشك " بالأبدان

ويعيدها الشعب المهيج كأنهـــا تنفجر " الدنميت " بالأطنان[40]

والقارئ في ديوان الأيوبيات لرشيد أيوب يلاحظ أنه يستخدم أحيانا بعض الألفاظ الأجنبية في صورة كلمات عربية يعربها هو ويدخلها في شعره مثل قوله في وصف مدينة نيويورك .

كأني " بالصبواي" يوم تجمهرت بها الناس خلت الناس في موقف الحشر

تروح بها " الكرات " ملأى خلائقا ترجع فيها مثقلات إلى الجسر [41]

وكلمتا " الصبواي " و" الكارات " أخذتا عن الانجليزية كما يبدو وتظهر ثقافة رشيد أيوب واطلاعه على المصطلحات الجديدة حتى العلمية منها ، لدرجة أثرت في شعره حيث يقول في " أغاني الدرويش "

وقائلة قد شاع شعرك في الورى بما فيه من نوح كنوح الحمائم

فقلت لها هاتي " الأشعة " وانظري فؤادي ففيه الغم مثل الغمائم[42]

يريد أن حزنه غائر في أعماق قلبه فهو لا يرى بالعين المجردة ، ويلزمها استخدام الأشعة حتى يبين لعينها من وراء اللحم والذم ما بدا في قلبه .

---

[40]. - محمد مصطفى هدارة : التجديد في شعر المهجر : ص 190 .

[41] - نادرة جميل سراج : شعراء الرابطة القلمية – دراسات في شعر المهجر – دار المعارف بمصر 1964 ، ص 271.

[42] - نادرة جميل سراج : المرجع السابق ص 272.

وشعراء المهجر كثيرا ما يستخدمون ألفاظا تدل على ذوق موسيقي عام عندهم ومعرفة بالآلات والأنغام والألحان ، إذن فالموسيقى ليست شائعة في أنغام الأبيات فحسب بل تبرر في كلمات معينة منثورة في دواوينهم ،إنهم كثيرا ما يتحدثون عن الناي والعود والمزمار ، وكثيرا ما يخاطبون الكمنجة والقيثارة وينشئون على ألحانها أشعارهم ، وإذا حاولنا معرفة من هؤلاء الشعراء كان أكثر ميلا الى هذه الناحية الموسيقية الغنائية في شعره فإننا سنلتقي مرة أخرى بالشاعر الوجداني العاطفي " رشيد أيوب " انه يقول في ديوانه " هي الدنيا " :

هات الكمنجة هاتـــها اللـــه في نغماتها

واحد على سمعي حديث للحب في رناتها[43]

يقول أبو ماضي في خمائله :

لا تسألوني اليوم عن قيثارتي قيثارتي خشب بلا أنغام[44]

وليس غريبا على شعراء مرهفي الحس رقيقي الشعور مثل شعراء المهجر أن يكثروا من استعمال مثل هذه الكلمات الموحية والألفاظ الرقيقة الهامسة.

وقد تساهل شعراء المهجر في اللغة وما إليها ، وهذا التساهل يرجع الى عوامل معينة ، فهم : يؤمنون بأن اللغة لا غاية وان الغاية تقصد في الشعر هي المعنى والفكرة ويكفي في نظرهم إن تؤدي الكلمة تاى المعنى ايماء . ولكن ليس

---

[43] - المرجع نفسه : ص 273.

[44] - المرجع نفسه و الصفحة نفسها .

معنى هذا أنهم كانوا يملكون أداة اللغة ثم يتغافلون عن استخدامها تطرفا منهم في ثورتهم ، بل إن هذا يعني أنهم كانوا يملكون أداة اللغة ، ثم يتغافلون عن استخدامها تطرفا منهم في ثورتهم ، بل إن هذا يعني أنهم يقدمون الفكرة على كل شئ ، فإذا كانت لغتهم تسعفهم في التعبير عن هذه الفكرة فلا بأس بذلك وإذا لم تسعفهم فأنهم يتجاوزون عما فيها من قصور من الناحية اللغوية ما دامت الفكرة قوية والمعنى سليما .

وأهم العوامل التي هبطت بالمستوى اللغوي لشعراء المهجر هجرتهم في سن مبكرة قبل أن تكتمل ثقافتهم اللغوية العربية يضاف الى ذلك وجودهم في جو أجنبي خالص لا يتحدثون فيه العربية إلا نادرا [45]وكان من الطبيعي تبعا لهذه العوامل ونتيجة للظروف التي عاشها المغتربون اذ نقع في أساليبهم على مأخذ عديدة في مضمار العربية الفصحى .

–فنجد القروي يستعمل كلمة " الحضور " بمعنى الحاضرين وهي كلمة غير فصيحة بهذا المدلول ، ويقول رياض المعلوف :

<< في قارب رشق >> بدلا من << رشيق >> كما وردت كلمة "جايح " بدلا من " جناح "لدى القروي في قوله :" طير ضعيف الجانحين صغير" .

ولدى الجر في قوله :

[45] - محمد مصطفى هدارة : المرجع السابق ص ص 190 ، 191 .

<< لملم النسر جناحيه وطار >> [46]

وكان خطأ جموع التكسير ، وهي سماعية م الخطأ الأكبر وهذا طبيعيا بالنسبة الى شاعر يقضي عمره في بلاد غريبة لا تلامس على سماعه فيها لغة الوطن الأم إلا غرا را فقد جمع شكر الله الجر طفل على طفالي ، في قوله ، << كأني الوجود ابتسام الطفالي وحلم العذارى >> .

وجمعرياض معلوف الأثيم على وزن أثامي في قوله :

" شفاه أثامي " وجمع شفيق معلوف حار على وزن حرار في قوله :

" أشواق حرار " وجمع كل من نعمة قازان والشاعر المدني البحر على " أبحار ".

وقد يفسح الشاعر قصيدته لدخول بعض كلمات دارجة في لغة العامة من نحورها عمد اليه فرحات في قوله : <<وجه وحش>> أي دميم و" الداية " بمعنى المراد القابلة أو ايراد شكر الله الجر " فتنا الطريق " أي " جرناه"

–وقد عرف شعراء المهجر باكثارهم من اشتقاق صيغ المبالغة على وزن " مفعال " مثل : منيات ، مكسال ، ملسان ، ممراح ، ممساح .

–وربما صيغ بعضهم الى اشتقاق أفعال جديدة من الأسماء الجامدة ، فقد اشتق شكر الله الجر من الكهرباء فعل "كهرب" واشتق فرحات من الفرنسيين " تفرنس"

---

[46] - عمر الدقاق : ملامح الشعر المهجري ، ص 308.

ومن الفينيقيين " تفينق"ومن الخاروق " تخورق" ووضع فرحات كلمة " المواج" مقابلة لكلمة " الراديو" ووضع القروي كلمة " الطواحة" مقابل لكلمة" البارشوث"

–وهذه المحاولات على قلتها تنم على رغبة في تجديد العربية وحرص على تطويرها واغنائها ، ولكن هذه الرغبة في التجديد كانت تتسم بالاعتدال لدى أكثر شعراء المهجر وقلما بلغت حدد التطرف والجموع فقد كان أكثرهم غيورا على العربية شديد الحفاظ على مقوماتها كما كان يحس في الوقت نفسه بحاجة قصوى الى تجديدها .[47]

الأوزان والقوافي :

لم يقف تجديد شعراء المهجر عند حدود المضمون الشعري بل تجاوزه إلى الايطار الخارجي الذي اقتربه أو ابتعد –عن القالب الموروث من موسيقى الخليل ، ويبدوا أن شعراء المهجر كانوا مقتنعين بأن تحررهم في الأشكال التعبيرية وخروجهم عن التقاليد الموسيقية الموجودة في الشعر العمودي هو نوع من الضرورة التي دعت إليها رسالة الشعر المهجري كما تصوره ، فالشاعر لا يمكنه في تصورهم أن ينهض برسالته السامية إلا إذا تحرر قدرا من التحرر من القيود اللفظية والبيانية والعروظية فهذه القيود تثقل كاهل الشاعر ، ولا تمنحه الحرية المطلوبة للتعبير عن المعاني والأفكار التي يريد التعبير عنها ، والنغم المتنوع أدعى الى هذه الحرية من النغم الثابت المحدد .

---

[47] - المرجع السابق : ص ص من 308 إلى 311.

وقد استخدم المهجريون –فيما استخدمو– طريقة الموشحات الأندلسية وهي طريقة لها تقاليدها وبواعثها التي استحدثتها وأشاعتها ،والتنويع الموسيقي في الموشحات كان ذا تأثير ضخم في شعراء المهجر وتكاد هذه الطريقة تغلب على الديوان المهجري بغير مبالغة ، ولعل في هذا إثارة من إعجاب بتلك الحرية التي تهيئها تلك الطريقة لدى الشاعر المهجري ، الذي يعترف في أكثر من موضع بثقل هذه القيود وصرامتها ، تشرئب نفسه لصدع هذه الأصار التي تثقل كاهله ومحاولة التقعيد والتقنين لهذا التنوع الموسيقي لذى المهجريين محاولة عسيرة صعبة ، لأن التنوع بطبيعته عندهم لا يخضع لتوحد واقتباس تحتمه قواعد الفن ، وإنما يخضع بالدرجة الأولى لمزاج الشاعر الذي يمارسه ، ولكن يجب التنبيه الى أن هذا التنوع لم يخرج في الأعم الأغلب عن الأنساق الموسيقية في الموشحات ، وهي من طبيعتها تحرر من جانب وتمسك من جانب أخر ، وسنحاول أن نورد طرقا من هذه الأنماط الموسيقية المتعددة لنرى مدى اقترابها وابتعادها من الأنماط الموسيقية المعهودة.[48]

يقول نعيمة من المزدوج تحت عنوان " النهر المتجمد "

يا نهر هل نضبت مياهك فانقـــــــــطعت عن الخرير

أم قد هرمت وخار عزمك فانثـــــــــــنيت عن المسير

بالأمس كنـــــــــــــــت مرنما بين الحدائق والزهور

[48]- عبد الحكيم بليغ : حركة التجديد الشعري في المهجر – يبين النظرية و التطبيق ، ص 355 ، 360

تتلو على الدنيا وما فيـــــها أحاديـــــــــــث الدهور

ويقول أبو ماضـــــــــــي من المربعات :

ولقد قلت لنفسي وأنا بيـــــــــــــــــن المقابر

هل رأيت الأمن والراحـــــــــــة الا في الحفائر

فأشارت فإذا اللدود عـــــــــــيت في المحاجر

ثم قالت أيها الســـــــــــــــــــائل أنني

لست أدري

أنظري كيف تســـــــــــاوي الكل في هذا المكان

وتتلاشى في بقايا العـــــــــــبد رب الصولجان

والتقى العاشق والـــــــــــــــقالي ، فما يفترقان

أفما ذا منتهى العدل ، فقالت

لست أدري

فالنموذج الأول تتغير القافية فيه كل بيتين والنموذج الثاني كل أربعة أبيات فيه بقافية معينة ولا عبرة بكتابة جملة " لست أدري " في سطر وحدها ، لأنها تكملة للتفعيلات الثلاث قبلها وبها يتم البيت تفعيلات الأربع لأنه من مجزوء الرمل .

وهذا لون أخر يكاد يشبه الموشحات ، برغم أن الشاعر زاوج بين أشكال موسيقية فيما يسمى بالأقفال ، يقول نعيمة تحت عنوان " لو تدرك الأشواك "

يا ساقي الجلاس بالله لا تحفل بكأس بين هدى الكؤوس

أنزع لغيري الكأس أما أنا فاحسب كأني لست بين الجلوس

واعبروا دعني فارغ الكأس

لا ، لا تقل ما طابت الخمر لي أو أنني ما بينكم كالغريب

بل ، ان لي يا صاحبي خمرة ما مثلها يطفي بروح اللهيب

أعصرها من قلبي القاسي

وهذا لا غبار عليه ، لو أنه لم يلتزم رويا واحدا في الأشطر الأولى في كل بيتين اثنين ، ثم نوع في قوافي الشطر الخامس ، فهي هنا " سين " بعدها " نون " ولكنه في المقطعين الأخيرين أتى بعد الشطر الخامس بسطر سادسة فكان النسق كالأتي :

يازهرة مابين شوك نمت لولا شذاها ظل عنها البصر

هل تدرك الأشواك يازهرتي أن الشذا هذا شاك أنشر

في الحقل لا عطلا لها فادحا

هل تدرك الأشواك ما تدركين

هل عطر العليق أذياله من حيث تمتصين أنت إلا ريح

أم حاك غير الشوك ثوبا له من حيث حكت أنت أبهى النسيج

وقد تصبح الأشواك أقاحا أقاحا

لو تعرف الأشواك ماتعرفين

وهنا يجب أن نؤكد أن هذه التنويعات لا تخضع تخضع لقاعدة مطردة غير مزاج الشاعر ، ولكنه اذا جاء بها التزمها ولو مرتين على الأقل كما هو الحال عند نعيمة .

وهناك ألوانا متعددة من الأشكال الموسيقية التي ابتدعها المهجريون على غير مثال سابق ، فهم يتوسعون في نظام المربعات والمخمسات والمسمطات والمجزوءات وما إليها توسعا يجعل منها ألوانا جديدة لا تجري على ماهو مألوف بين أشكال العربية ، وهذا مما يجعل محاولتهم تلك –كما قلنا أنفا –بعيدة عن محاولة الظبط والتقنين .فنحن نرى مثلا نماذج أخرى من شعرهم لا تكاد تلتزم منهجا معينا أو قاعدة محددة ومن هذا مثلا قصيدة لنعيمة بعنوان " من سفر الزمان " بوجه الحديث فيها الى سنة مديره ، يقول :

روحي فكم شئت وشابت سنين

من قبل أن بانت حواشيك

واليوم كف الدهر تطويك

عنا ، ومن يدري متى تشربين

روحي وخلينا

بالأرض لا هنا

نرعى أما نينا

في برج أوهام

مابين أيام وأعوام

تتأتى وتمضي ، وهي سر دفين

–ففي هذا النموذج نجد أنفسنا أمام شكل صياغي جديد كل الجدة ، فهو ينتمي الى طريقة الموشحات ، ولا يخضع في صورة أوزانه وقوافيه وتوزيع أشطره لنظام من النظم المعروفة ، ولكننا نود أن نقول أن هذا النموذج –مع هذه الجدة – ليس من الشكل الحر ، لأن نوعا من الخضوع للنظام الموسيقي يتميز ويتكرر في القصيدة ساريا في ثناياها ، يبعده عن الشكل الحر .

ويستخدم المهجريون نظام المربعات والمخمسات ، ولكنهم يتصرفون في ذلك ألوانا من التصرف ، بحيث تصبح أنماطا جديدة ومتعددة ومن هذا مثلا قصيدة بعنوان "موطني " لالياس فرحات يقول فيها :

نازح أقعده وجد مقيم في الحشا بين خمود وانقاد

كلما افتر له البدر الوسيم عضه الحزن بأنياب حداد

يذكر العهد القديم فينادي

أين جنات النعيم من بلادي

زانها المبدع بالفن الرفيع منصفا بين الروائي والبطاح

ملقيا من نسج أبكار الربيع فوق أكتاف الربى أبهى وشاح

حبذا راعي القطيع في المراح

ينشد اللون البديع للصباح

ومنه أيضا قصيدة للشاعر " شكر الله الجر " بعنوان " شلال تبجوكا " يقول فيها :

يرفرف حولك سرب الحسان كسرب الحمام على ضفتيك

وكم تتلاقى أماني الشباب وأحلامهن على جانبيك

فيخفق صدر ويحمر خد

ويرشف ثغر ويهصر قد

ويهتك ستر وينثر ورد

فتبكي لهذا عيون العفاف

ومن هذا القبيل أيضا قصيدة لنعيمة بعنوان " صدى الأجراس " يقول فيها :

بالأمس جلست وأفكاري سرحت تستفسر أثاري

ترود الحاضر والماضي أملا أن تدرك أسراري

وإذا سكينتي ارتجفت وقوافل أفكاري وقفت

إذا مزق ستر الليل صدى عرفته الأذن وما عرفت

دن –دن –دن –دن

وتكررت هذه اللازمة " دن " في كل القصيدة ، وربما خيل للشاعر أنها صدى لصوت الأجراس وهذا صحيح ، ولكنها في الحقيقة لا تقدم زادا فنيا غير مجرد الرغبة في التجديد ، مهما كان ، افتقادنا للقيمة الفنية من ورائها .

ومن هذا النمط أيضا ، قصيدة لنسيب عريضة بعنوان " النعامي " يقول فيها :

هيا بنا يا ندامى

فقدأتتنا النعامى

تجر ذيل الربيع

قد زال الثلوج

هيا أبصروا في المروج

جسم الجمال البديع

والنعامى ترنمت النعامى

والرخامي ترخمت الرخامي

فهموا الى الربى يا ندامى

لا تقولوا على الصبا يا سلاما

وربما كانت في البيت الأول والثاني من هذه القصيدة ، شئ من البهاء والرونق والمعنى أيضا ولا كننا لا نجد شيئا من ذلك في قوله " النعامى ترنمت

النعامى والرخامى ترخمت الرخامى " لأن مثل هذه التكرارات لا تقدم شيئا سوى الرغبة في البهرجة اللفظية بغير مقتض فني .

ولدينا مقطوعة لجبران معقدة بعض الشئ في بنائها الموسيقي لأنه يناوح فيها بين أشطر قصار وطوال ، ولكنه يلتزم نسقا صحيحا لا غبار عليه يقول :

بالله يا قلبي أكتم هواك

واخف الذي تشكوه عمن يراك تغنم

من باح بالأسرار

يشابه الأحمق

فالصمت والكتمان

أحرى بمن يعشق

بالله يا قلبي إذا أتاك

مستعلم يسأل عما دهاك فأكتم

وقد يجمع بعضهم في القصيدة الواحدة بين بحرين مختلفين ، وهذا لا داعي له فنيا ما دامت تفعيلات البحر الواحد تستطيع القيام بما يريد الشاعر أن يقوله ولكن المسألة في النهاية لا تعدوا أن تكون إلا ضربا من الرغبة الملحة دائما في الخروج عن المألوف ، من هذا النمط مقطوعة لندرة حداد التزم فيها تفعيلات البحر الخفيف ، ولكنه يختم كل مقطوعة في قصيدته بشطر من الرجز فيقول :

إن رأيت الفقير يهتز ضعفا سائلا من يمد عونا وعطفا

ورأيت البخيل يجتاز خطفا لا يبالي وليس يبسط كفا

لا تذمي ميوله وشعوره

فهو بلا وجدان

ومن هذا النسق أيضا محاولة شفيق المعلوف في ملحمته " عبقر" حيث جمع فيها بين تفعيلات السريع والرجز ، وهما قريبان وبخاصة في الطرب حيث تكون " مستفعل " توازي " مفعولا " ولكن شفيق المعلوف تتميز عنده أحيانا أشطر من السريع وأشطر من الرجز لا سبيل الى إدماجهما معا يقول الشاعر في أحد المقاطع "

ويحك يا إنسان

ألق عصا سحرك

زغرت فينا الجان

فعدت بالشيطان

من شرك

وددت يا غادر لو أنني

أطلقت ثعباني لا ينثني

عنك ، فيرديك ولكنني

أخشى على الثعبان

من غدرك

في نابه السم كان

وصار في صدرك

فليس هذا الصل بالأفعوان

بل أنت يا ثعبان

فعد الى وكرك

لا شك أن مجرد نظرة على هذا النمط ، تدرك مناوحة الشاعر بين السريع والرجز ولا يتقيد الشاعر بنسق معين ، بل يتحرك بوحي من رغبته الخاصة ، ولعل ما يجعل للشاعر مندوحة في مثل هذا التحرر والتنوع أن ذلك الشعر من النمط الملحمي الذي يناجي الروح والخيال أكثر مما يخاطب الحس والأذان .

وفي هذا السبيل الى التحرر ، جنح بعضهم الى ما يسمى " بقصيدة الشر " وهي تسمية فيها تجوز كثير ، وتعني التعبير بالشر عن أغراض شعرية متخذة طريقة الشعر في التصوير واللغة الانفعالية ، من ذلك ما كتبه نعيمة في " همس الجفون "

الشرار

ناري تشيب وتزفر

والشرار السجين في الجذوع والقسور

تتواثب الى فوق

فلا تلحمه العين

ومثل قول رشيد أيوب في ديوانه الأيوبيات "

من أنا

أنا لغز نثرتني الطبيعة فنظمي الدهر شعرا

صدره الشباب وعجزه المسيب

وسوف تتغلغل نفسي بين طيات الدهور

وتسقط بي الى أعماق اللانهاية كما تسقط

نقطة المطر في الأوقيانوس ولا يعلم مقرها إلا الله .

توسع الشعراء المهجريون في التحرر من التزام التقاليد الموسيقية المعروفة في الشعر العمودي من وزن وقافية الى أبعد حدود التوسع لأنهم كانوا يهدفون م وراء ذلك الى تنويع النغم الموسيقي وعدم الارتباط بعدد الأوزان المحددة في أبحر الخليل ، وذلك حتى يجد الشاعر منطلقا فسيحا للتعبير عما يتردد في نفسه من ضروب الأحاسيس والمشاعر .

ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي :

كما يتجاور الكون الظلام و النور و يتجاور في الحياة الخير والشر ينطوي وجود الإنسان على الملذات و الآلام وعلى السعادة والشقاء .

و لكن الشاعر بطبيعته المرهفة أكثر تحسسا بأقذاء الحياة و أشواكها ، و كأنما كتب على ذي العقل و الحس أن يشقى دوما بعله و حسه .

(و الأديب بطبيعته ينصف بعدم القناعة و عدم الرضا عن ذاته و عن سواه ، و يمكن التأكيد بأن الأدب و الشؤم كانا متلازمين دوما ، و من بل كان أبو العتاهية ، و أبو تمام و إبن الرومي ثم المتنبي و المعري ثم أبو ماضي و الشابي متسمين بالتشاؤم).[1]

و كأن طبائع الشعراء جبلت بالدمع و قلوبهم فطرت على الحزن على نمر ما قال ابن الرومي :

لم يخلق الدمع لإمرئ عبثا الله أدرى بلوعة الحزن

و قد يتراءى للباحث – للوهلة الأولى – أن الإغتراب وحده هو الذي سارق أدب المهجر في هذه الدروب الاتمة و جلله بسواد التشاؤم و الكآبة .

وفي هذا الراي و جاهة و لكنه لا ينطوي على السداد كله ، إذ ليس بوسعه أن يفسر بواعثنا الحزن و الكآبة التي غلبت على نفوس عدد من الشعراء قبل ترحلهم

[1] - الدكتور عمر الدقاق ، ملامح الشعر المهجري ، مطبعة جامعة حلب 1978 ص 219 .

إلى المهجر ، و كما نجد اصداء هذا التشام لدى شعراء قلما غادروا وطنهم مثل : ابن الرومي و ابي العلاء فإننا نلمس أيضا هذا الإتجاه القاتم لدى شفيق معلوف و رياض معلوف و هما في ربوع الوطن و بل أن تخطر ببالهما فكرة الإغتراب ، فديوان رياض معلوف الأول وهو " الأوتار المتقطعة " مغرق في التشاؤم مسرف بالدموع كما ينبئ عنه إسمه ، و أكثر أناشيده يحمل عنوانا مماثلا كالوتر النائح و الوتر الدامع ، و ما الحياة في رأي هذا الشاعر ، ألا ليل مالك ليس فيه شعاع من ضياء و لا بصيص من أمل إذ (كل ما في الكون هم و شاء و عذاب) ، و هو ينفك يقول :

أنني شاعر أعيش لأن لي أنا منذ الميلاد و الهم توءم

أو يقول :

بسمتى في عبراتي و غنائي بالنواح [2]

كذلك كان ديوان شفيق معلوف الأول << الأحلام >> طاحا بالنظرات القاتمة في الكون و الحياة ، فهو إذ يوفي بأحلامه على الإنتهاء يناجي ربه قائلا :

ألا هي سألتك تدمير هذا الوجود و تحطيمه بيديك

ألست ترى في الحياة جموعا تقرح أعمالهم ناظريك

فأفن الوجود و خذهم إليك و الإ فيارب خذني إليك

[2] - ديوان الأوتار المتقطعة : مصر 1933 ، النشيدان الثالث و السادس .

إنها غضبة فتى ثائر ساخط (يعتقد أن في إستطاعته تبديل الكون و تغيير نواميس الحياة) [3] فهو ينبغي هلاك الكون الكون أو يهلك دونه .

و كان حريا بهذا الإتجاه الباكي في الأدب أن يلقى اشد النقد من بل ذوي النزعة المغايرة [4]و ينعوا عليه ظاهرة الكآبة و الشكوى و النواح و قد إنبرئ أمين الريحاني لمناقشة نزعة شفيق معلوف الفاشية في ديوانه الأحلام قائلا :

<< هذه اللهجة لهجة الكآبة و الحزن كانت " موضة " في زمن بايرون و موسيه إذ ليس الشاعر زئبقة في جمجمة ، إنما الشاعر الحقيقي مرآة للجماعات و مصباح في الظلمات و عون في الملمات و سيف في النكبات)[5] و لكن الشاعر نفسه جنح إلى القول بعد سنتين : (لو طلب إلي الآن رأيه فيما أنكره علي الكتاب من الكآبة و الشكوى في قصيدة الأحلام لا نكون معهم على نفسي ذلك الأسلوب .....أما و د نمتها في مقتبل العمر تحت تأثير طور الفتوة المكتنف بالظلمات و الحيرة و قلق النفس فإنني أراها صورة حقيقية ، لنفسيتي في ذلك الحين ، كما يصح ان تكون صورة لنفسية معظم الشبان) [6]

فالرومانتيكية حالة شعورية لا تقتصر على مكان و لا تختص بعمر و هي أكثر ما تتفتح بأزهارها السود في حنايا النفوس الشابة التي تتسم برهافة الحس و دقة الشعور و شدة الإنفعال .

---

[3] - عيسى الناعوري : أدب المهجر ص 519 .
[4] - عمر الدقاق : ملامح الشعر المهجري ص 221.
[5] - المرجع نفسه : الصفحة نفسها .
[6] - المرجع السابق : ص 221 .

و من هنا وجد شعراء العصبة أنهم غرباء قبل أن يغتربوا ، إنها غربة الرومانتيكي عن عصره و قومه لأنه في صراع داب مع بيئته و مع نفسه فهو أبدا تأثر على مجتمعه يتطلع إلى المثال فلا يلبث أن يرتد عنه خائبا ، و إذا ذلك يعود إلى قوقعته ينسج فيها الأحلام التي يتحقق له البعد عن عالم الواقع في ماض سعيد أو ألم لذيذ أو موت هنيئ (هذه الغربة التي يشعر بها الرومانطيقي في مجتمعه المتطور هي التي تنشر في أدبه وقفة الحنين إلى المجهول و المطلق و اللامحدود الزي يكشف عن الكآبة التي تتعمق كلما أدرك أنه لا يستطيع تحقيق عالم المثال)

[7]

و قد تحق هذا البعد الرومانتيكي في عالم الواقع في هجر أولئك الشعراء أوطانهم بعد أن إنطوت نفوسهم على أشد منازع السخط و التشاؤم .

و هكذا فإن ظاهرة التشاؤم التي يتسم بها كل ذي حس مرهف بلغت أشدها لدى شعراء قدر لهم أن يعيشوا في وطنهم و بين قوم غير قومهم ، و أن يلاقوا من الإخفاق في الحياة و من مشقات العيش ما يورث الهم و يبعث على الشقاء ، كانت تلك النفوس الطامحة الحالمة تجيش و تغتلي ثورة على الواقع المرير الذي قدر لها العيش في أكنافه ، فراحت في مغامرتها تلك تتلمس معالم الطريق نحو آفاق النور و السعادة تحدوها آمال عارمة بالحياة الكريمة وثقة وطيدة بالغد المشرق ، و لكنها لم تكن غير حياة مشقات قدر لها أن تبدأ في ساعة دون أن تنتهي إلا بإنتها الأجل

---

[7] - المرجع السابق : ص 222.

وتبا لذلك الدرهم الذي غمس بالدمع و الهوان ، و كما أفاق المغترب على هول المأساة فإذا فإذا هو قد اضاع نفسه فيما أضاع ، و ما أعرب عنه حسني غراب في قوله :

زورقي تائه و زادي قليل و شراعي بال و نجمي خابي [8]

و ما أعرب عنه شكر الله الجو في قوله أيضا :

صناع عمري سدى ، و شمس شبابي لوحت للمغيب خلف السنين [9]

و مثل ذلك ما جاز به " إلياس فرحات " من فرط يأسه :

خلقت شقيا و عشت شقيا و أحسب أني أموت شقي [10]

لقد إصطلحت الأرزاء على الشاعر الغريب في مهجره و تجهم له الواقع حتى خيل إليه أنه بات هدفا يرمي فاقد يشعر تبعا لذلك بالتفرد ، و مثل هذا الإحساس بالذات الذي وجدناه عند المتنبي اتجاه الدهر و الناس نجده ، ايضا لدى الشاعر المدني في قوله : ما ذكرت القديم إلا بـــــــــآه أو لقيت الجديد إلا بأف

داهمتني الخطوب من كل صوت من أمامي و جانبي و خلفي

ما تبقى مني مكان لجـــــــرح او دم للمداد يكفي لحرف

كذلك يتجلى هذا التفرد الرومانتيكي في إشعار يوسف اسعد غانم الذي يقول في تشاؤم مماثل :

---

[8] - المرجع السابق ص 223.
[9] - المرجع نفسه : الصفحة نفسها
[10] - إلياس فرحات : ديوانه الربيع ص 95 .

لي درب خالفت كل الدروب

ضيم الليل عليها و إستبد الشوط فيها

فكأن شمت بروقا في سماها

و نجوما ساطعـــــــــات و شموسا مشرقات

حجب الغيم عن الدرب سنادها [11]

و كان طبيعيا أن تتشح بالسواد نظرة هؤلاء الشعراء إلى الإنسان من حلال نظرتهم القاتمة إلى الوجود كله ، فهذا الإنسان كلما عرفنا – شرير بطبعته فاسد بجبلته ، و إذا كان فيه من خير فهو مكتسب ولا بد للطبع أن يغلب التطبع ، أنه في راي الفروق (اشره كائن) وهو لدى فرحات (شر من الضواري) كما أنه عند شفيق معلوف (اشد عذرا من الأفعران ....) ، و مثل هذه النظرات القاسية في الحقيقة من سمات النزعة الرومانتيكية التي دأب أعلامها في الغرب أيضا على إزدراء الإنسان ووصمه بالشر و الفساد ، و من هذا القبيل ما قاله (بايرون) بسخط و مرارة : << أيتها الكلاب .....أو أيها الناس و أنه لشرف لكم أن أدعوكم فهي تفضلكم >>[12]

---

[11] - عيسى الناعوري : أدب المهجر ص 525.

[12] - عمر الدقاق : ملامح الشعر المهجري ، ص 224.

أما عنصر الألم فلعله في طليعة مقومات النزعة المتشائمة لدى الأدباء و المحرك الأول لعواط الرومانتيكيين ، فالحياة عندهم سلسلة من الآلام و الأحزان و هي أيضا عند فرحات بكاء متصل و دموع سجام .

نبكي الطفولة في الشباب فإن نشب نبكي الشباب بكاء طفل جائع

فإذا دنت رسل الحمام رايتهـــــا تبكي الحياة بكاء جـــــازع

نستقبل الدنيا بسبيل مدامـــــع و كذا نودعها بسبيل مدامـــع

ضاع الرجاء فكلنا في أثـــره دمع يضيع على الرجاء الضائع [13]

و لقد كان ألم الإغتراب أصل هذه الآلام التي تفجرت في تلك النفوس المغذية و جعلتها تجأر بالشكوى ، أنها أنشودة الغريب التي لم يكف أولئك الشعراء من ترديها ، و ها هو القروي يقول :

مهجعتي كلها جوى كبدي كلها حنيـــن

أبدا اشتكي النـــوى دأبي النوح و الأنين[14]

و الألم لدى هذا الشاعر ظاهرة لا مناص منها في الحياة بل أنه يراها قوام النفس الشاعرة :

أن أردت الحياة تعبق طيبا فأجرح الشاعر الحنون دمه

يملأ الأرض و السما غناء و شفار الأذى تحز بعظمه [15]

---

[13] - المرجع نفسه : ص 225.
[14] - ديوان القروي : ص 185.
[15] - ديوان القروي ص 738 .

و إلى هذا المعنى جنح ايضا شكر الله الجر في تصويره غناء أبولو الشجي إذ قال :

لا يرسل الناي في أنغامه نغما أن لم يهجه من الأنفاس مضطرم

و لا يغني الهوى في قلب حامله أن لم يخزه الأسى و الشوق و الألم[16]

و قد إذا للألم في نفس هذا الشاعر منزلة رفيعة ، فهو يعدمه إلى تمجيده و الاشادة بفضله على الإنسان و يرى فيه سر الحياة و الخلود :

أنت لولا الهم لا تفقه معنى للوجود

أنت لولا الحزن لا تسمع أنغام للخلود

أنت في الحزن سرورا لا تراه في السرور

إن في الآلام لذات لا رباب الشعور [17]

حتى أن الشاعر الجر يمضي في هذا الإتجاه إلى أبعد مدى ، فهو لا يقف عند حد تمجيده عنصر الألم في الحياة بل يتلهف على معانقته و يتمنى على خالقه أن يديم عليه آلامه :

إجعل اللهم اشواقي و آلامي تدوم

انا لولا الشوق و الآلام مخلوق عقيم

---

[16] - عمر الدقاق : ملامح الشعر المهجري ص 225.

[17] - المرجع نفسه ص 226.

و هكذا عذت الآلام نعما يخشى الشاعر زوالها ، و كأنما الألم لذوي النزعة الرومانتيكية أصبح بمثابة الماء و الهواء ، فهو الذي يطهر النفوس من أدرانها و يعمق فيها إنسانيتها ، و ليس المرء في نظر الرومانتيكيين ، سوى طفل يهذبه الألم و أن أروع الشعر عندهم ما كان آنات خالصة ، كما أن أبدع الأغاني – كما يقول موسيه – ما تسر بل بالأسى ، فالحس يقتضي الألم بل إنه قوام له و يكاد يكون الألم نفسه لدى تلك النفوس المرهفة ، و إذا ما خلت قريحة الشاعر منه أجدبت و اصيبت بالعقم و كأنها تنسلخ بذلك من إنسانيتها و تغدوا أشبه بجماد لا حس فيه ، و ما النفس الرومانتيكية في آلامها الدائبة إلا صورة أخرى من العذاب المقيم الذي كتب على << بروميثيوس >>أن يعانيه إلى الأدب ....كما تقول الأساطير.

إن ظاهرة الألم التي تجلت على هذا النحو في شعر العصبة الأندلسية لا تكاد تختلف في شيئ عما إتسم به أعلام النزعة الرومانتيكية في الغرب الذين كانوا يجدون في الشمعة التي تحترق التي تنير السبيل للآخرين صورة لنفوسهم المتفردة ، و من هنا تتجلى أهمية الألم في حياتهم الفنية لانه سر العبقرية و مفتاح العطاء ، و هذا المنازع كثيرا ما تلتقي مع الأفكار المماثلة التي دأب الشاعر القوري و شكر الله الجر و رياض معلوف و سواهم على إرسالها ، و بخاصة ما صدرت عنه أدباء العصر الرومانتيكي في فرنسا كألفريد دوموسيه في قوله المعروف << ما من شيئ يجعلنا عظماء مثل ألم عظيم >> ، كما نجد هذا المفهوم لأثر الألم في النفوس

عند شاتو بريان الذي يقول في قصته << أتالاه : (لا يدهشك أن تقاسي من شؤون الحياة أكثر من الآخرين فالنفس الكبيرة تحوي من الآلام أكثر من النفس الصغيرة)[18]

فشاعر مثل رياض معلوف عرف بتطرفه الرومانتيكي و إسرافه في التشاؤم قد إستمر الألم و ألفه حتى بات يرى في كل بهيج ما يلم ، إنه يصور ذاته المرهفة في قوله :

أرق الحب بكوخ شاعـــــرا عينه تفضح دمعا يكتمـــــه

غمرته بهجة الكون و هــل بهجة الكون سوى ما يؤلمه [19]

و إنها لظاهرة غريبة أن تتحد الآلام و الملذات و تتعانق على هذا النحو عند شعراء المهجر لتغدو عنصرا واحدا قوامه هذا الحس الحاد الغامض الذي يصح أن ندعوه باللذة الملمة أو الألم اللذيذ ، فكما غذت الآلام عند الشاعر المدي أو القروي و شكر الله الجر لذات يحرصون عليها غذت المباهج عند رياض معلوف آلاما يتغنى بها.

على أن فرط الحس عند هؤلاء الشعراء بات يريهم في الغالب كل ما في الوجود مؤلما و لو كان بهيجا ، فهم يرون في السرور ما ينغص عليهم العيش

---

[18]- المرجع السابق ص 227 .

[19] - المرجع نفسه ص نفسها .

لأنه سوف يمضي ، و في السادة ما يورث الأسى لأنها زائلة ، و من هنا لم ترق لهم الحياة مهما بسمت لأن حلاوتها ممزوجة بالمرارة .

و أغلب الظن أن فكرة الموت هي التي كانت تؤرق شعراء المهجر و تبعثهم على هذا التشاؤم بالإضافة إلى عامل الإغتراب و ما نجم عنه من هموم في نفوسهم ، بل إن الغربة نفسها قد زادتهم إحساسا بدنو الأجل و جعلتهم يصدرون في اللاشعور عن تلك النظرات القاتمة و يصبغون الوجود بها ، إن آمال هؤلاء الشعراء في غربتهم القاسية أخذت تضيق يوما بعد يوم و تنحسر عن بريق السراب الرؤى حتى خيل إليهم في ساعات تشاؤمهم المفرط أن منافذ الحياة د سدت عليهم و أنه لم يبق لهم ما

يتمنون في عيشهم سوى الموت ، فالموت لدى حسني غراب خلاص للمعنيين في الأرض من حياة التيه ، إذ لا راحة لامرئ إلا بإنعتاق روحه من سجنها المادي :

ما أرحب القبر على ضيقه و أضيق الدنيا على رحبها

و راحة الأجساد لا ترتجى ما دامت الأرواح في ركبها [20]

و الشاعر المدني يستعجل الموت و يرى فيه راحة كبرى بعد عذاب مقيم

يا مانعي اللذات جد بألذها و أمنع فادي مرة أن ينبضا [21]

---

[20] - المرجع السابق ص 228.

[21] - المرجع نفسه : الصفحة نفسها .

كذلك يستسلم الشاعر القروي للموت و يتشوف من ورائه السلام الأبدي :

أغربي يا شمس عني و أغمريني بالظلام

و دعيني أضع الرج على شط الســـــلام

و نحن ، في قصيدة الياس نشعر مع القروي بالمود بعد ذلك الجهاد المؤنس كأن تلك النفس الثائرة قد خمدت و إستقرت في وادي الديم ، إنها صيحة يائسة من أعماق النفس المعذبة .

هل بينكم من راحم قاتـــــــل يزحزح الأيام عن كاهلي

يقذف بي في درك اللـــــج لا يلفظني موج إلى ساحـــل

إبني أبغي عدما مطـــــــــلقا يعي على النافخ و الجابل

ما حيلة اليأس لا ينتهـــــــي من عاجل إلا و إلى عاجل

هب كان لي الخلد ، تنغصته يذكر هذا الألم الهائـــــــل [22]

إلى مثل هذا المدى يبلغ التشاؤم لدى عدد من شعراء المهجر في ساعات يأسهم فإذا هم يبسطون ذراعيهم للموت ذلك الألم الكبير و الراحة الأكبر معا ، لد تشوقوا العزاء في ذلك الشاطئ الابدي حيث تلقي النفس المكدودة مرسانها لتنعم بالسكينة المطلقة ، أما هذا الرضى بالمصير المحتوم فهو لا ينطوي في حقيقته إلا على إستسلام تام لسنة الطبيعة و إقرار بالعجز المطلق اتجاه حتمية نواميسها ، و جملة

[22] - المرجع السابق ص 228.

القول ان في هذه الظاهرة القاتمة التي إنعكست لدى شعراء العصبة وهم في ذروة تشاؤمهم يتجلى منتهى الهرب من وطأة الواقع المرير .

اما الجانب الآخر في شعر العصبة الأندلسية و ننى به الوجه المشرق فإنه يتجلى في قصائده كثيرة تتسربل بروح الغبطة و التفاؤل لم يستطع دوما أن يخفي معالم التشاؤم الممتدة جذورها في نفوس هؤلاء الشعراء ، و لنقرأ للشاعر القروي قصيدته المتفائلة حيث يقول :

مثلك الكون و الزمان فـــــــــــلا تلح مكانا و لا تذم زمانا

و إسم عن أن تشكو إلى الناس فقرا و لئن بت جائعا ضمآنـــــا

ليس في قضمك الحديد هـــــــوان أن في بثك الشكاة هوانا

بسمة تظهر الفقير غنيـــــــــــا دمعة تمسخ الشجاع جبانا

لا يخب رغيفا بسعـــــــــــــي و إذا عز حنطة فزوانا

و لك الأرض و السماء و هل يــد عى فقيرا من يملك الأكوانا [23]

فالشاعر يبث في المغترب روح الثقة و الأمل ، و هو إذ يعمد إلى مواجهة الحياة بسلاح الترفع و التسامي إنما يقر بقسوتها و تفاوت الحظوظ فيها و لا يجد سبيلا للتلاءم معها سوى أن يصطنع المرء العزاء اتجاهها و أن يقبلها على علاتها .كذلك كذلك يجنح شكر الله الجر إلى مثل هذا التفاؤل بإصطناعه فلسفة اللامبالاة

[23] - ديوان القروي ص 220.

في مواجهة الحياة ، إذ على المرء أن يغتنم صفو الليالي لأن العيش إختلاس من خلال هذا العمر القصير .

فخذ الحياة كما تدور مفردا تغريدها

فاليوم تمنح وصلها و إذا صدودها [24]

و مثل هذا المسلك الذي يعتمد على التلام الإرادي مع الواقع المرير يبدوا جليا في قول الشاعر المدني

تبسمت لما رماني زماني بسوء كأن زماني رعي [25]

كما يبدوا ذلك في ول الياس فرحات حين تكاثرت عليه المحن في مهجرة :

من كان في أسفل الهوة لا ينحذر[26]

و على هذا الفرار إنطوى كثير من قصائد التفاؤل على ملامح التشام فالشاعر في غمرة أحزانه قد يصطنع لنفسه الرضى و الزهد و يتذرع بالصبر و العزاء ليواجه عناصر الشقاء و الألم في الحياة .

و لا شك أن التسليم قوام هذه الفلسفة التي عجز أصحابها عن معاندة القدر .

و ما من شك في أن صفات التفاؤل و التشاؤم التي تتجلى بها ظواهر الكون و الحياة إنما مصدرها الذات الإنسانية ، فالنفس هي التي تصبغ الوجود بألوان

---

[24]- عمر الدقاق : ملامح الشعر المهجري ، ص 231

[25]- المصدر السابق الصفحة نفسها .

[26]- المصدر نفسه : الصفحة نفسها .

مشاعرها فتجعل قاتما تارة و زاهيا تارة أخرى ، فالمتفائل إذ يتطلع إلى الكأس يرى نصفها مليئا بينما لا يرى فيها المتشاؤم سوى نصفها القاوي .

و هذا سبب تباين منازع التفاؤل و التشاؤم بين إنسان و آخر بل سبب تباينها لدى الإنسان نفسه تبعا لتبدل مزاجه و تلون عاطفته .

و لعل من دلائل هذا المظهر الرومانتيكي القاتم ما أطله شعرا العصبة الأندلسية على بض قصائدهم من أسما مثل : ساعة المغيب و فناء الخلوة و الموت و عروس الضريح للشاعر شفي معلوف ، و جراح الحب ، و الهزاز المنتحر ، و المصدور لرياض معلوف ، و المنزل الصامت و شتاء الحياة و اليأس و اليتيمة العمياء لعقل الجر.....و الزورق المحطم و الموعد الأخير و القرية المهجورة و الأوتار المتقطعة لشكر الله الجر....و السوري التائه و هنيئا للراحلين ، و على سرير الآلام و شكوى الوسادة و سئمت و اليأس للقروي ، و دموع و صوت غريق و نفثات ، و ألم و أرق و رثا بلبل و ايها الدمع لإلياس فرحات ...

لقد جنح شعراء المهجر في قصائدهم هذه إلى تناول الجانب القاتم من الوجود ، إنهم نظروا إلى الإنسان فرأوه ينطوي على الشر و الفساد و الجشع ، و نظروا إلى المجتمع فوجدوه حافلا بالظلم و الإستبداد و الكذب و النفاق ، و الشراع لم تكن لديهم إلا قيودا كما لم يكن الدين في رأيهم إلا تفرقة و تعصبا .

و كثيرا ما كانوا يؤثرون تصوير الفقر و الألم و الهم و الشقاء و المرض و الموت ، أو وصف الغروب و الليل و الخريف و الشتاء ....

و هكذا سرت الكآبة في جانب بارز من شعر هؤلاء ، و ما هذه القاهرة إلا جماع عوامل عديدة تضافرت على المغترب من هم مقيم و ألم عميق و قلق حائر و شك عاصف كان نتيجتها إن إذا شطر من هذا الأدب المهجري متشحا بالكآبة مجللا بالحزن مبللا بالدمع و كأن المتنبي قد عني هذا الشاعر المغترب كما عني تقدمه إذ قال :

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة فلا أشتكي فيها و لا أتعب ؟

و في ضوء ذلك يمكننا أن نفسر بواعث هذا التيار القائم الذي دفقه الإغتراب بقوة في نفوس الشعراء المهجرين و إنعكس جليا في شعرهم .

وقد يكون من ناقلة الو أن نذكر أن روح الكآبة لم تصبغ جميع شعر العصبة ، إلا أنها مع ذلك تشكل ظاهرة بارزة في أدبهم ، و كثيرا ما تجلت الروح الإيجابية المؤمنة في نظراتهم المتفائلة إلى الحياة و آرائهم البناءة إتجاه المجتمع ، و إذا قيس شعرا العصبة الأندلسية في البرازيل بشعرا الرابطة القلمية في أمريكا بدورا اكثر إعتدالا من هؤلاء في هذا المجال ، فقد كانت النزعى الرومانتيكية في المهجر الشمالي و بخاصة لدى جبران أكثر إيفالا و تطرفا و بالتالي أشد إسرافا في التشاؤم و الشكوى ، و قلما نقع في ادب الشماليين على الجانب المشرق من

الحياة سوى ومضات تخفق في ظلام الكآبة و اليأس ، و لعل إزدياد سلطان الحضارة المادية و إستفحال وطأة الآلة على النفس الشرقية في الشمال قد زاد الأديب العربي عزلة و دفعه في شعاب الرومانتيكية .

فنزعة التشاؤم و الشكوى عند شعراء العصبة لا تعدو في الغالب الشعر الذي تغنوا فيه بوجدانهم الخاص ، على حين كانوا يخرجون عن هذا النطاق في كثير من شعرهم القومي و الإجتماعي .....و ليست هذه الرومانتيكية بما إنطوت عليه من كآبة و حزن و شكوى بدك لدى شعراء العصبة على هذا النحو الذي يظهر تعدد جوانبهم فكثيرا ما تعانقت المنازع الذاتية و الإجتماعية عند شعراء في الشرق و الغرب و كان لهم برغم ذاتيتهم المسرفة مواقف وطنية بارزة ..... و ثمة عدد من شعراء العصبة عرفوا بنزعتهم الرومانتيكية و كانوا في الوقت نفسه في طليعة من مارس الشعر القومي و الإجتماعي مثل الشاعر القروي و إلياس فرحات و شكر الله الجر و حسني غراب الذين جعلوا شعرهم موزعا بين خفقات قلوبهم و نداءات بلادهم .

و د يبدوا هذا الأمر غريبا ، إذ كيف يتسنى لإتجاهين من الشعر يبدوان متباعدين متنافرين إذ يجتمعا في شاعر ؟ و لكن ما يجدر الإنتباه إليه أن الرومانتيكية بطبيعتها ثورة و سخط و إنطلاق ،و أن عددا من أعلامها في الغرب جعلوا من شعرهم بل و من أنفسهم وقودا للمباد التي إعتنقوها : << و كان أدبهم

صورة صادة للإتجاهات الثورية و الوطنية ، و قد عبر عن آمال ذلك المجتمع في أدب فيه الحميا الفنية و الثورة الفكرية >>.[27]

و في ضوء ما تقدم نلاحظ أن هذه المنازع الرومانتيكية التي تجلت في اشعار المهجريين و تسربلت في الغالب بالكآبة و السخط إنما هي خاصة لصيقة بأدبهم نابعة من ذاتهم ، و ما الرومانتيكية في الأصل إلا حالة من حالة النفس و مرحلة من مراحل الحياة و مظهر من مظاهر العصر ...و على ذلك لا مجال للقول .

إن المهجريين في نزعتهم هذه كانوا صدى للآداب الغربية لأن مثل هذا القول ينفي الصدق و الأصالة عن شعراء المهجر على حين أنهما في طليعة الخصائص التي إمتاز بها أدبهم ، فقد إجتمع لأولئك الشعراء في غربتهم من أسباب هذه النزعة ما لم يجتمع لكثير من أعلامها في الغرب ، كذلك لا مجال لول بعضهم أن هؤلاء المهجريين كانوا متأثرين في ذلك بالنزعة العلائية التي عرف بها المعري ، إذ كيف يتتلمذ جيل بأكمله من الشعراء على شاعر بعينه ، ثم لماذا كان هذا الشاعر أبا العلاء دون سائر شعراء العرب.

الواقع أن حياة الإغتراب و مشتقاته هي التي ساقت شعراء المهجر في هذه المجاري المعتمة حتى إذا ما وعوا في شعر العرب على ما يتجاوب و نزعتهم تلك أقبلوا عليه و نهلوا منه .

---

[27] - المرجع السابق ص 235 .

و من الباحثين من يحاول أن يجد هذا الطابع المتشاؤم في أدب المهجريين نسبا واشجا مع السريان القدماء [28]، فيري أن البقية في روح الحزن السوري القديم لأن تاريخ أولئك السريان كان عراكان و بلادهم كانت محتوبا يتصاول فيه الفقر و الغنى و العبواية و الحرية و الخوف و الأمان .....

هذه الآراء جميعها تهدر العوامل الفعالة و المؤثرات المباشرة التي أثرت عن كثب في أدب المهجر و جعلته يتسم بسيمات و خصائص تميزه عن سائر الأدب العربي ، و كيف تسقط خصائص وراثية موهومة تفصلها ن هؤلاء الشراء ، حقاب مديدة على حين كان هذا الأدب المهجري مرآة عصره و بيئته وصورة صادقة من نفس مبدعيه ، ثم كيف يكون بوسعنا من جهة أخرى أن نفسر بروز هذه النزعة الكئيبة لدى شعراء المهجر دون شعراء سورية و لبنان : الوطن الأم ؟ لا شك أن إختلاف المؤثر يقتضي إختلاف الأثر .

إن ظاهرة التشام بل ظاهرة الرومانتيكية في مجملها لا تقتصر على مكان دون مكان و لا تقتصر بقوم دون وم ، و لكنها وليدة عوامل و ظروف بعينها ، فقد طغت موجتها حينا من الزمن على أدباء المهجر ، كما طغت في الوقت نفسه على كثير من الشعراء في مصر حيث << كان المستحيل كما يو محمد مندوره أن يظهر أدب غير أدب الشكوى و الأنين ، فالشاعر لا يستطيع أن يتحدث إلا عن نفسه و

---

[28] - المرجع السابق ص : 236.

أحلامه ، أو أن يهرب من الجحيم الذي يحيط به إلى الطبيعة يتغذى بها عن آلامه و آلام قومه >> [29]

و لعل إتسام جانب من شعر هؤلاء المهجريين بالروح المتشائمة على هذا النحو يرجع إلتى قوة التيار الوجداني في نفوسهم مما يمكن أن نجد فيه ظاهرة فنية جديدة تقابل إبتعاد الشاعر العربي القديم عن ذاته في مثل شعر المديح .

و برغم أن جانبا كبيرا من هذه الظاهرة القاتمة أخذ بالإنحسار بصورة عامة في عصرنا هذا فإن من العسير إقتلاعها و ذلك لعمق جذور النزعة الوجدانية في النفوس لأنها تلبي حاجات غلابة في النفس الإنسانية ، و سيكون هذا شأنها على الدوام كما كان شأنها من بل ردما من شاعر عظيم – كما يقول أبروكرومي – لم تخفق الرومانتيكية بجناحيها حول نتاجه الشعري .[30] و الشعراء بطبيعة نفوسهم المتلهفة و مشاعرهم المرهفة و نزعاتهم المتوثبة يجنحون في حياتهم إلى التمرد و يغذون أكثر تجاوبا مع جوانب الحياة الملمة و صدماتها المؤلمة .

وفي أساطير الإغريق أن << تزوس >> خلق الآلهة من بسماته و خلق البشر من دموعه ،و أن أشجى الألحان التي إبتدعها لنا الشعراء على مر العصور هي تلك التي كانت تعبر عن عميق حزنهم و بالغ أساهم ، و كأن الألم مفتاح العطاء و منبت الإبداع ، و ألم الغربة هو الذي أغنى نفوس شعرا المهجر و عمق إحساسهم

---

[29] - المرجع السابق : ص 237 .
[30] - المرجع السابق : ص 238 .

و كتما بخيالهم و هاج عواطفهم و أنه ما بلغ من نفس الشاعر المغترب أقسى من تجربة الإغتراب التي إقتلعته من تراب وطنه و إنتزعته من بين أهله و طوحت به في بلاد قصية ثم أورثت مشاعره و أفكاره هذا الإنعطاف الكبير .

ملحمة الإغتراب :

إن الذي يراجع ديوان الشعر العربي كله من بداياته الأولى في العصر الجاهلي حتى هذه المرحلة التي نعيشها في العصر الحديث ، نجد أن تجربة الإغتراب عن الأوطان و الحنين إليها من أضخم التجارب و أكثرها أصالة و صدقا في ذلك الديوان ، فنحن لا نكاد نعرف أمة مجدت أوطانها و قدستها وحذت إليها على البعد و فنيت في حبها و الوفاء لها مثل ما كان من الأمة العربية ، فالإرتباط بالأرض عندها هو إرتباط التاريخ و المصير ، و عاطفة الوطنية في وجدانها عاطفة قوية مشبوبة يذكيها البعد و يؤججها الاغتراب ، و الوفاء للأهل و العشير لديها لا يقل عن الوفاء للنفس ، و مرد هذا كله – فيما ترى – يرجع إلى التأثر الشديد بقيم الحضارة الروحية التي إكتنفت حياتها منذ تاريخها الطويل .

و تجربة الاغتراب في الشعر العربي عميقة الجذور و متعددة الدواع ، فالشاعر منذ العصر الجاهلي يتغني بوطنه إذا رحل عنه ، و تهفوا نفسه إليه و تتقد روحه شوقا إلى كل ما فيه ، و قد يشعر بغربة الروح و الفكر و هو يعيش تحت سماء وطنه و فوق أرضه، و ذلك إذا منى بنوع من الحصار أو الضغط

بالنسبة لدينه أو فكره أو عقيدته السياسية أو طبقته الاجتماعية ، و حينئذ لا يستطيع أن ينعم بلذة الأمن و الاستقرار ، و يجتاح نفسه إحساس مرير بالغربة و عدم الشعور بالانتماء الحقيقي ن فلا يجد بدا من أن يسجل إحساسه هذا في شعر ينبض بالحيوية و الصدق .

إن شعراء المهجر – إذن حلقة من تلك السلسلة الطويلة من شعراء الإغتراب في الوطن العربي منذ بداية التاريخ ، فهم يحنون إلى أوطانهم حنينا دافقا ، و يشعرون بقسوة الإغتراب شعورا عميقا ، و تصطخب نفوسهم بشوق جارف و لهفة عارمة إلى تلك البلاد العزيزة التي تركوها راغمين ، فتربتها وجدانهم أقدس تربة ، و جبالها أعز جبال ، و سماها أرفع سماء ،و أرضها أمنع أرض ، و كل ما فيها يتسامى في خواطرهم إلى مرتبة الإعتزاز و الحب لا يتطاول إليها شيئ مهما كان .

و إذا كان من الطبيعي أن الشاعر تعمق لديه – دائما – مثل هذه الأحاسيس ، فلقد ضاعت منها لدى شعرا المهجر تلك الظروف القاسية التي أرغمتهم على مفارقة أهاليهم و اوطانهم ، ثم عدم شعورهم بالإستقرار النفسي وسط تلك الحياة المائجة المعقدة التي زادتهم إحساسا بروعة الطبيعة السمحة التي فارقوها في أوطانهم ، فكان حنينهم إليها صورة من ذلك القلق النفسي الذي إكتنف حياتهم في عالمهم الجديد ، و إعلانا عن رغبتهم المشبوبة في العودة إلى بلادهم .

و كم من مهاجر كان يحسب العالم الجديد منبعا للخصر و مزعا للهناء ، و سرعان ما وجد انه معترك هائل و جهاد عنيف ، و أن عليه أن يكد اضعاف مان كان يفعل في وطنه ليكسب الرزق .....هكذا يصور << مسعود سماحة >> ، حال المهاجرين و قد قذفه سوء الطالع إلى الغربة، حيث صدمته النوائب و عركته الشدائد فيقول <<المهاجر>> :

كم طويت القفار مشيا و حملى فوق ظهري يكاد يقصم ظهري

كم فزعت الأبواب غير مبال بكلال و قر فصل و حـــــــــر

كم ولجت الغابات و الليل داج وومیضي البروق شمسي و بدري

كم توسدت صخرة و ذراعي تحت راسي و خنجري فوق صدري [31]

و هذه صورة صادقة لحال الكثيرين من الأدباء المهاجرين .

و هذا الكلام هو الذي ينطبق بصدق على حال المهاجرين ، و يصور حقيقة الحياة التي عاشوها في مهاجرهم و كيف كانت نفوسهم ، في الأعم الأغلب – ضيقة بهذه الحياة ، و كيف أثار ذلك كله حنينهم و اشواقهم إلى أوطانهم و أهليهم

على أن الإنسان مهما رفه به العيش ، و غتسعت أمامه أبواب الرزق ، و نال حظه الوافر من الحياة و الشهرة و الديوع في بلاد غير بلاده و فوق أرض غير أرضه ، فإن ذلك لا ينسيه إغترابه ، و لا يطامن من لوعة إشتياه إلى تلك البلاد التي ترددت أنفاسه أول ما ترددت في أجواها ، فهو لا يشعر براحة القلب و

[31] - الدكتور عبد الحكيم بليع ، حركة التجديد الشعري في المهجر بين النظرية و التطبيق ص 268.

سعادة الضمير إلا بين ربوعها ، و جبران خليل جبران هو خير مثل لذلك الإنسان الذي لم يسل قلبه يوما عن ذكر بلاده و الحنين إليها بالرغم من كل ما حققته له الهجرة من أمجاد مادية و أدبية .

فلقد طبقت شهرته آفاق الحياة الأمريكية ، و توثقت صلته الإجتماعية و الثقافية بعدد كبير من مشاهير مفكريها و شعرائها و من بينهم الشاعرة " باربرا بونج " " Barbara yonng " التي وضعت كتابا عن جبران بعنوان << هذا الرجل من لبنان >> تحدثت فيه عن شخصيته و فكره .

هذا الرجل << جبران >> الذي يمثل الحركة المهجرية و يقف على رأس رابطتها القلمية ، و يمثل بكل ما أبدعه من فكر و فن تجربتها الثقافية و الفنية الواسعة هو الذي يقول لصديقه << ميخائيل نعيمة >> و كأنه قد ضاق صدره بحياة المدينة الأمريكية و هفت روحه لطبيعة لبنان الساحرة :

<< ميشا ....ميشا[32] نجاني الله و إياك من المدينة و المتمدنين ، و من أمريكا و الأمريكيين ، و نحن سننجو بإذن الله و سنعود إلى قمم لبنان الطاهرة و أوديته الهادئة ، و سنأكل من عنبه و بقوله ، و نشرب من خمره و زيته ، و سننام على بيادره ،و نسرح من قطعاته ، و نسهر على شبابات رعائجه و خرير غدرانه >>[33]

---

[32] - ميشا : هو ميخائي نعيمة

[33] - المرجع اسابق ص 274 .

و تلح عليه فكرة الرحيل عن هذه البلاد الصاخبة الهائجة التي يضيع فيها الإنسان المغمور المجهول حتى يصبح كخرقة بالية أو مثل ممسحة ليس ها قدر و لا قيمة ، فيمضي فيه حديثه إلى صديقه قائلا : << لا بديا ميشا ....لابد لي و ذلك من الرحيل عن هذه البلاد ، فالويل لمن كان مجهولا فيها لأنه ليس أثمن من خرقة ، و الويل لمن نال فيها و لو بعض الشهرة لأنه يصبح ممسحة ،أنا ممسحة يا ميشا و نفسي تطالبني بعودتها ، و فكري يطالبني بحريته ،و الجسم يطالبني براحته ، و لن أستعيد زة نفسي و حرية فكري و راحة جسمي إلا في لبنان ، ولو كنت تعرف الصومعة التي إخترتها لي و ذك هناك لكنت تجدبني من يدي هذه الدقيقة و تقول : هيا بنا إليها هي صومعة أصلية يا ميشا لا تقليدية كصومعتي هذه >>[34]

ومن الأصوات الشعرية التي سجت هذه التجربة ، نجد رياض المعلوف يستبد به الإحساس بالغربة ، و يتوقد روحه شوقا و حنينا إلى مغاني وطنه و رحاب أهله و ذويه و يتمنى لو يسمح له الزمان بالعودة ليجدد العهود ، و يقطف العنقود ،و ليجد الراحة النفسية العميقة في كوخه الأخضر الصغير الذي لم يغنه عن جماله ك ما وجده في القصور من بهاء و جلال يقول :

هل يا ترى تعـــــــود إليك يا لبنان

فتصدق الوعـــــــود و يسمح الزمان

فتقطف العنقـــــــود منوع الألوان

---

[34] - المرجع نفسه ص 274.

كم سحت في المعمور ما عزني منظر

فبلدي المهجـــــور و كوخي الأخضر

أحلى من القصــور و الذهب الأصفر

هل يا ترى نعــود إليك يا لبنـــان [35]

هذه الأبيات يتلهف من حبها – كما يتلهف غيره – إلى العودة إلى وطنه و يرى فيه من ألوان البهاء و الرواء ما لم يره في غيره من هذا العالم المعمور الذي ساح في أرجائه ، فلا القصور تنسيه كوخه الأخضر ، و لا المال يجعله يسلو عن بلده الذي فارقه ، و نزح عنه مصطرا و راغما ، و يتمنى لو سمح الزمان بأن يعود إليه يروي ضمأ أشواقه و يشفي غليل نفسه ، و تك هي المعاني العادية التي تثار – دائما – في هذا المجال مجال الشعور المرير بالإغتراب ، و الرغبة المشبوهة في العودة .

و الشاعر القروي رشيد سليم الخوري من أكبر شعراء الحنين المهجريين ، إنه أيضا يعزف على ذلك الوتر الأسيان الحزين ، و تعصف بروحه لوعة الإغتراب فيغني لأطانه أعذب أناشيد الوفاء و الولاء و الحب ، إنه شقي بغربته ووحدته ، و لا يجد العزاء عن ذلك في شيئ مما حوله ، بل إن كل الذي حوله يضاعف إحساسه بما يعانيه من أسى و مرارة و إكتئاب ، فالناس من حوله أعاجم تذهب رطانة ألسنتهم بكل معاني الألفة و الإرتياح و الأنس ،و امدينة ضخمة و عظيمة

---

[35] - المرجع السابق ص 294 .

،ولكنها في إحساسه بباب و فقر ، أنها لم تتح ه راحة اقلب و طمأنينة الضمير ، فهو في رحابها غريب تملأ قلبه الوحشة ،و تستبد بروحه لواعج الحنين ، و م يجد في عالمه شيئ يؤنس وحشته و يهدهد لواعج حنينه إلا أن يحدق في آفاق فنه يعانق أطيافه ، و يلتمس في روائعه العزاء و السلوى ، يقول :

ناء عن الأهل يفصلنـــــي عمن أحب البر و البحر

في وحشة لا شيئ يؤنسها إلا أنا و العود و الشعــر

حولي أعاجم يرطنون فما للضاد عند لسانهم قدر

ناس و لكن لا أنيس بهــم و مدينة لكنها .....قفر [36]

فهذه الوحشة التي لا شيئ يؤنسها ،و التي يشقى بها هؤلاء المهاجرون مبعثها الحقيقي – إذن – هو إنعدام الألفة و الروابط النفسية الأكيدة بينهم و بين الحياة التي يعيشونها ، فلا هم يألفون الناس لعجمة ألسنتهم و قساوة قلوبهم ، و لا هم يستعذبون العيش لإنعدام بها ربيع أعمارهم ، و لم ينالو من سعيهم فيها إلا مقدار ما يناله النمل أو تحصل عليه الصراصر ، و من أجل هذا فإن الغربة تفزع أحلامهم و الحنين إلى الوطن يفضي مضاجعهم .

و الشاعر القروي يعبر مرة أخرى عن هذه المعاني بقوله :

دفنت ربيع عمرك في بـــلاد بها طالت لياليك القصار

إذا لم تحو تربتها حجـــــارا فبين ضلوع أهليها الحجار

---

[36]- المرجع السابق ص 297 .

ثمارك من طوافك سعي نمل و حظ صراصر بئس الثمار

فكم يقظة لك في الدياجـــــي تقضي قلبها نوم غـــــرار

وفي أذنيك صوت مستمـــــر << رشيد >> لقد صفر القطار [37]

و لقد كان المهجريون لفرط إعزازهم لأوطانهم ، و تعلق أرواحهم بها و فنائهم في حبها فنا يشبه فناء الصوفية ، يتصورون أنهم يعيشون بروحين ، واحدة يتحركون بها تحركا جسديا تافها في متاهات هذا العالم الكريه الذي يعيشون فيه بلا إرادة ،و الأخرى رهن هذه الأوطان الحبيبة ، فهي تسري في شعاب أرضها الطيبة و مغاني ربوعها الحبيبة ، و تجري في خلايا كل هذا العالم الخير الكريم الذي يضم الأحباب و الأهل ، فهم و إن كانوا يعيشون في مغارب الأرض بأجسادهم ، فإنهم يعيشون في مشارقها بأرواحهم و بكل ما تزخر هذه الأرواح من طاقات الإيمان و الحب.

و الشاعر نسيب عريضة يصور لنا هذه المعاني في قوله :

أنا المهاجر ذو نفسين واحـــــدة تسير سيري و أخرى رهن أوطاني

إين العروبة لا أسلو الربوع و إن كانت مثيرة أو صابي و اشجاني

ما إن أبالي مقامي في مغاربهـــا و في مشارقها حبي و إيمانـــــي [38]

---

[37] - المرجع نفسه ص 297.

[38] - المرجع السابق ص 298 .

كما نجد ميخائيل نعيمة في قصيدته صدى الأجراس التي محورها الأساسي حظة معاناة صادقة ، تنسحق فيها روحه تحت أعباء الواقع المرير الذي يعيشه في ديار الغربة بعيدا عن الوطن و الأهل ، فلم يجد بدا من الهروب من قبضة هذا الواقع ، و و لو إلى حضن الخيال و الوهم ليعانق من خلالهما أطياف ماضيه الجميل ، و أحلام شبابه الزاهية ،و أسباح أترابه و رفاه و هم يمرحون في يوم العيد ، ثم يكرون وهم في عنفوان السعادة إلى الغاب حيث تحييهم أشجاره و تناجيهم أطياره و تصافحهم أزهاره .....، إن الشاعر يطير بجناح من خياله إلى أعماق الماضي البعيد ليستمع إلى صوت صباه وهو يتردد في جنبات الوادي ، أيام أن كان يمرح فوق هاتيك الربوع ، و كأنه سلطان يتربع على عرش هذا العالم ، و الزهر من حوله يعطر أنفاسه ،و النهر يولد في راسه أشباحا راقصة لخرير الماء ، لكن هذه المرحلة النفسية الجميلة لا تلبث أن تنتهي ليعود الشاعر مرة أخرى ، إلى واقعه الأليم ، حيث يجد أن سكينته قد إضطربت ، و أن جحافل أشباحه قد هربت ، و أن الغاب ووجوه الرفاق قد توارت عن عينه ، فلم يبق شيئ بعدها ، إلا آلام العيش و أوزار قد عادت لتطل من قلبه ،و ترى أوتاره تتقطع وهو يعزف عليها ألحانا كئيبة حزينة لا تطرب أحدا في هذه الدنيا ، فيعبر عن هذه المعاني في قوله :

بالأمس جلست و أفكـــاري سرحت تستفسر آثاري

و ترود الحاضر و الماضي أملا أن تدرك أسراري

و إصطفت حولي أيامـــــي تستعرض عسكر أحلامي

فمشت أحلامي تحفزهـــــا و تقود خطاها أوهامـــي

و آفاق الشك و أنصـــــــاره آلام العيــش و أوزاره

فأطلقوا من قلبي ليـــــــــروا قلبا تتقطع أوتـــــاره

و شبابا يجمعها ابـــــــــدا و يعقدها عقدا عقــدا

و عليها يعزف ألحـــــــــانا لا تطرب في الدنيا أحدا

و إذا بسكينتي إرتجفـــــت فقوافل أفكاري وقفـــــت

إذا مزق ستر الليل صدى عرفته الإذن و ما عرفت

دن دن دن دن

بالله شكوكي خليتـــــــي وحدي ذا الصوت يناديني

ذا صوت صباي يـــــرردده الوادي و شواهق حنيــن

سمعا دن – سمعا دن [39]

و يلي الشاعر هذا الصوت الذي يحمل إلى خياله كل مشاهد الماضي و ذكرياته ، و أيامه الزاهية الجميلة ، فيلتقي بأحبائه و رفاقه حيث يمرحون و يفرحون ، تملأ قلوبهم زهرة الشباب و الأمل ، فينطلقون إلى الغاب و ينعمون

[39] - المرجع السابق ص 301

بشجره و زهره و طيره ، و بكل ما أغدقت عليه الطبيعة من مظاهر الحسن و آيات الجمال و الفتنة .

اشجار الغاب تحييننـــــــا و طيور الغاب تناجينا

و زهور الغاب تصافحنـــا و نصافحها و تهنينـــــا

دن دن دن دن

الريح تمر بنا خببـــــــــا فتميس الحور لها طربا

و الشمس بلطف تلثـــــم أو جهنا و تذر لنا ذهبا

أغصان الغاب تلاعبنـــــــا وهو أم الغاب يداعبنا

و صخور الوادي تدعونـــــا و صدى الأجراس يعاتبنا

دن .....دن[40]

و أخيرا تتبدد أصداء ذلك الصوت ، و تتبدد معها كل هذه الصور المشرقة من أيام الماضي السعيد ، و يفيق الشاعر من أحلامه الوردية فا يجد أمامه إلا طيفا الذكرى و أشباحها الذابلة ، فيعود إلى ما كان فيه قلقا مفزعا مضطرب السكينة ، يطارده الشك و تحاصره آلام العيش ،و تلك هي الصورة المأساوية الحزينة التي تنتهي بها هذه المرحلة النفسية وراء صدى الأجراس :

من ذلك بين الأشجـــــــــار يمشي كخيال من نار

هو يضرب عودا و الأشجار م تئن لشكوى الأوتار

[40] - المرجع نفسه ص 302

دن .....دن

الزهر ينكس تيجانـــــه و الحور يلملم أغصانـــه

و الريح تمر على أوتار م العود فتخنق ألحانـــــه

دن

ما با سكينتي اضطربت و جحافل أشباحي هربت

و الغاب و ما فيها ووجوه رفاقي عن عيني احتجبت

قد عاد الشك و أنصـــاره آلام العيــش و أوزاره [41]

و هكذا نرى أن تجربة الاغتراب و الحنين و الاعتزاز بالوطن تحتل مكانا بارزا في التراث لشعراء المهجر ، و يطول بنا المقام أو أننا أوردنا مزيدا من أمثال هذه النماذج الرائعة من الشعر الوجداني الصادق الذي تفعمه حرارة الحنين إلى الوطن و حبه و تقديسه و الارتفاع به فوق مستوى كل من يعشق و ما يحب و تقديسه و الارتفاع به من فوق مستوى كل ما يعشق و ما يحب ، لقد تحول الوطن في وجدانهم ، إلى معنى كبير قوامه ذكريات حلوة ناعمة في مرابع الطفولة و مدارج الصبا و مراحات الشباب ،إنها ذكريات عاطرة طلت تنفح أرواحهم بذلك الشذى الفواح الذي طالما أفعمت به نسائهم حلب و لبنان ، فما أجدرها بأن تلهب مشاعرهم بحرارة الشعر ، و تلهمهم هذه الروائع من ذلك الشعر الوجداني الرقيق .

[41] - المرجع السابق ص 303.

عاطفة الحنين :

1- إلى الوطن :

كان يطيب لأولئك الركبان من المغتربين العداء بين الحين والحين وهم في عرض المفاوز أو بين جلاميد المصانع ، فيلتفتون الى وطنهم يناجونه بلوعة ولهفة ، ويمدحون من قلوبهم الذائبة المضناة أنغاما شجية مفعمة بالشوق والحنين .وما عاطفة الحنين في جوهرها إلا نزوع شعوري طاغ إلى ما افتقده الإنسان وميل عارم الى وصاله ، أنها عاطفة سامية فيها الإخلاص وفيها الوفاء وفيها الحب .وشعر الحنين أوثق الأغراض الشعرية ارتباطا بنفوس المغتربين وأكثرها أصالة ، وهو الشعر المميز لهم ومفتاح شخصيتهن وأية إبداعهم وشؤ خلودهم ، ولعله قديم قدم عاطفة الحنين في النفس الإنسانية ، بل ان الله أودع هذه العاطفة في الطير والإبل وسائر الحيوان . ومنذ الأزل انطوت جوانح الإنسان على عاطفة الحنين حين كتب عليه أن يخرج من الجنة ويحن إلى رياضها ثم يضرب في أنحاء الأرض فيخلق أهله وذويه ويفارق عشيرته وصحابه ، كذلك استبدت مشاعر الحنين بذلك العربي القديم لتخرج شعرا عذبا مثجيا تحلى في الوقوف على الأطلال وبكاء الأحبة وتذكر العهود السالفة . وهل ينسى المرء وطنه ، بل هل ينسى نفسه وقد رضع من أثداء أرضه ولفحته شمسه وأنسه بدره ، وكيف ينسلخ عن مربع لهوه ومسراته . وموئل مطامحه وأحلامه ، وموطن ذكرياته وأشجانه ؟

–وشعر الحنين في أدب المهاجر الأمريكية ، قاطبة أن هو إلا ظاهرة شاملة تاقع بها هذا الأدب ، وسمة عامة اتسم بها ، لأنه كان وليد آل صعبة من الاغتراب وآلامه ، وحصيلة دوافع نفسية وشعورية متعددة ألمت بالمغترب ، ولهذا تقاطرت أشعاره من فم كل شاعر مهاجر متى لم يكد يخلو قصائده ديوان .

ذلك النازح الذي تمرد على وطنه وكفر بما حباه الله من نعم كان عليه أن يقتلع جسده من ترابه المقدس ليرتمي به في الأرض الغربية مخلفا وراءه الدمع في المأقي والنار في الكبود .

ولكنه لم يتجرع في غربته إلا غصص الآلام ولم يتغذ إلا بالأمرين .

كانت الغربة الجرح الذي لا يندمل والقدر الذي لا يدفع ، فقد غدا الترياق حلما بعيد المنال بعد أن سار ذلك الغريب في شعاب الحياة وتوغل في مطاوي العمر ، فلم يعد لديه سوى الشعر يلوذ به ويخلو اليه ، ويستودعه ما في نفسه من بوح وما في قلبه من نجوى .اما السعادة ، السعادة التي خلف كل شئ دونها وراح ينشدها وراء المحيط فبات وصالها أمنية عزيزة ، لقد كانت في وطنه تترقرق عند قدميه ، وبصره معلق بالشراب ، حتى إذا ما انجلت الغشاوة من على عيونه وهو على الشاطئ القصي لاحت له أطيافها من الشرق البعيد ، ولكن هيهات أن ينعم بها ويستمتع بوصالها ، لقد هرب منها فهربت منه ، فإذا هو طوال حياته يفتقدها ويندبها ، وهذا ما كان يعتلج في صدر القروي في موشحه " أين السعادة " :

في ظل روض ظليل والماء عن جانبينـــا

وللنسيم العليل روح ترف علينـــا

لم يمض غير قليل والحظ عبد لدينـــا

حتى دعا للرحيل داعي النوى فمضينا

أين السعادة أينا [42]

لله ما أشجى عبارته <<أين السعادة أينا >> التي تتمدد على إيقاع محبب من موسيقى النفس الوالهة .وهاهو ذا الشاعر دائم الشكوى يناجي طيف السعادة فلا يلبث أن يرتد طائفا وفي القلب لوعة وفي العين دمعة :

ناء عن الأوطان يفصلنـــــــي عمن أحب البر والبحـــر

في وحشة لا شئ يؤنسهـــــــا الى أنا والعود والشعـــر

عجبا وكم في الأرض من عجب بين السعادة والشقا فتـــر [43]

ولطالما شكا الناس فرحات ألامه وما من سامع شكاته ، انه أيضا وحيد ، والناس من حوله جموع حاشدة والحنين يأكل كبده ويحرق مهجته :

كم حول عند بالماء من غرد حاس على ضمأ ومبترد

لكنه والهجر يخنقـــــــــه في سربه يحيا كمنفر

زادت على الأيام لوعتـــه وحنينه ، والصبر لم يزد

---

[42]- ديوان الزاوي 143.

[43]- ديوان الزاوي ص 93 .

تغريده شكوى تصاعد من قلب بنار الشوق متقد

ما كان لولا سوء طالعه عن عشه الدافيء يبتعد

لكنني والحسن يغموني مذ بنت عنك أصبت بالرمد

لا يبصر المفتون –أن حجبوا عنه الحبيب –الحسن في أحد [44]

– لقد طال على النازح الزمن وتكاثرت عليه النوائب والمحن ولم يعد له من عزاء سوى التعلل بذكر الوطن والانكفاء الى العهود الزاهية فوق ربوعه ، ومن طبيعة النفوس المعذبة أنها في غمار حياتها العابسة وواقعها المتجهم تجنح لاستعادة رصيدها السالف وعواطفها الغابرة هربا مما هي عليه من أسى وكأبة ، وعند ذلك يطيب لها العيش في رحاب الماضي البهيج وتستمرئ التهويم في عالمالذكرى وهكذا كان طيف يلم بشكر الله الجروينقله بلمحة خاطفة الى ربوعه الفاتنة :

كيف نسلوه موطنا ماسلانا إن ذكراه في النوى سلوانا

كم رقصنا مع الجداول فيه وضحكنا مع الربيع زمانا

وصبغنا أزهاره بأمانينا فرقت في جوه ألوانـــــا

إن لبنان عندنا جبل الإلهام والشعر حيث كنا وكانـــا

علم سابح على شفق النفس وفجر يشع خلف دجانـــــا

جذفي ، جذفي على الشاطئ الوردي منه يا ذكريات صبانا

---

[44] - ديوان الياس فرحات ص 203.

وامرحي يا نسائم الصبح في أوراقه الخضر واهمسي نجوانا

نحن في البعد مقلة ترشف الغيم على أفقه جوى وحنانا

وقليل ان نبذل العمر يا ساقي على قطرة تبل ظمانا

وعجيب من ابن لبنان ألا يبصر الحسن في سواه مكانا

أسهد الشوق مقلتيه فلا ينفك يبكي أيامه تحنانـــــــا

وطن لا نروم عنه بديلا ولو أن البديل كان الجبانـــــا [45]

كانت رؤية الماضي الجميل وبعث الذكريات العذاب بلسما لجراح ذلك المغترب وبردا على قلبه المشوق ، فالشاعر نصر سمعان يطيب له العيش أبدا في ربوع حمص حيث نسائم الميماس وخرير العاصي ، انه يستعيد صفحة مشرقة كان الدهر قد بسم له فيها وأذاقه حلاوة العيش

– ان أنس لا أنس في الميماس ليلتنا والجو صاف ونور البدر ألاق

وبلبل الروض يعلو بالنفوس إلى حيث الملائك أسراب وأجواق

يشدو فتختلج الأفاق زافـــــــرة والنجم مصغ وقلب الليل خفاق

لاح الصباح لنا من قبل موعده كأنه لسماع الشدو مشتـــــاق

والنفس الوالهة التي تتوق الى وصال من تحب تجنح لتحقيق بغيتها عن طريق الخيال أو الحلم ، وقد تبدع لنفسها صورة من عالم الذكريات أو عهود الطفولة تتنفس في ظلالها الوريفة عن بؤسها الكامن وواقعها المتجهم .

---

[45] - عمر الدقاق : ملامح الشعر المهجري . ص 96 .

فحين تغدو رؤية الوطن أمرا بعيد المنال فلا أقل من أن تتم بعين الخيال ، وكل ما في الطبيعة بوسعه عندئذ إن يكون مطية الى هذه الرحلة الشعورية ، فمن قبل لاذ الشعراء العرب بظواهر الطبيعة للإعراب عن مشاعرهم الصادقة فناجوا النسيم والسحاب والذر والنجوم ، وحملوا أشواقهم سارى البرق وسرب القطا وظبيات البيد وحمام الدوح ..وهل تتبدل النفس الإنسانية وتحول عواطفها ..وعلى هذا الغرار بث شعراء المهجر لواعج حنينهم وأضافوا الى ذلك –تبعا لاغترابهم وراء المحيط – مناجاة الشراع والمجداف والسفين والموج .

وهكذا كان كل ما يلوح لعين المغترب دي الحس المرهف يذكره بوصفه وينقله إليه ، فيرى به ربوعه خلال موج البحر ، أو في جنة البدر ، أو في حفنة من ثلج .

–أما الشراع فقد غدا لصيقا في حنايا النفس الغريبة ، راسخة صورته في القلب المعذب ، اذ ارتبط بمأساة المهاجرة وأصبح رمزا للرحيل .ان تهاديه فوق الموج يثير في نفس المغترب أشجى الذكريات . ولكنه في الوقت نفسه يبعث في روحه أعذب الآمال ، لقد كان به أصل الداء وأسى الوداع ، ومع ذلك فان في جناحه أيضا بلسم الشفاء وفرحة اللقاء ، وهكذا لاح الشراع لشكر الله الجر فطار به كاللمح الى فردوس وطنه وهو يقول :

كلما لج في البحار شراع لجت الذكريات في إرهاقي

فمن الأرز من خمائله الخضـــــــــــــراء من جوه من الأعماق

من مهاوي الثلوج من قتن (الميزاب) من مجــثم النسور العتاق

من أغاني الملاح من نغم الأمـــــــواج عند الغروب والأشواق

من رنين الأجراس من زهـــــوة الأعراس بين الصنوج والأبواق

من عداء الشباب من زغردات العـــــنيد تدوي في حلبة الأجواق

لي من كلها مناد يناديني الى العـــــــــــــود بعد طول الفراق[46]

إن مشهد ذلك الشراع هو إلي دفق من قريحة الشاعر تلك المويجات الجميلة من الذكريات .فالنفس تختزن لقطات من الماضي البهيج فهي تنزع للخروج في ساعات الشوق والحنين ، ولا تلبث أن تندفع عند أقل إثارة من رؤية شراع أو ثلج أو مرور سحاب أو نسيم ، فإذا هي تتقاطر عن طريق التداعي صورا ساذجة شائقة تنساب في النفس انسياب الحلم العذب .

كذلك أثار الثلج في نفس شفيق معلوف أشجانه وأذكره أهله ولبنانه :

تا الله ما يشدني إليك يا ثلوج

غير الى في موطني مع نداف القطن

في خاطري يموج [47]

والبدر أن لاح في سماء المغترب الشجي ناجاه الشاعر القروي :

---

[46] - المرجع السابق : ص 98.

[47]- المرجع نفسه : ص نفسها

أيا كوكبا في داجي سماء السعود يتيه على النبرات اختيالا

اذا ما تنقلت بين البـــــــــروج ففي جو لبنان حط الرحالا

وأقر النسيم سلامي نسيمـــــــا وأهد الجبال هيامي جبالا [48]

ونحن واجدون في قمر الياس فرحات أحلى ربوع الوطن وأجمل ملامحه ولأنه والوطن امتزجا فأصبحا شيئا واحدا على غرار الحلول المتبادل :

اني انتظرت القمر أشكوله أمري

فازددت لما ظهر جمرا على جمر

هذا خيال الوطن في وجنة البدر

هذي سفوح التلال هذي أعاليها

هذي عيون الجبال تجري مأقيها

هذي مراعي الظبا هذي مأويها

هذي ديار الصبا يا ليتني فيها [49]

وعلى هذا النحو من اليسر والبساطة تتقطر مشاهد الوطن فيما يشبه انسراد الشريط ، وكأنها الجدول يترقرق . وقد يفتقر مثل هذه الأبيات الى التدرج والتماسك العضوي بحيث يسهل علينا تغيير ترتيب صورها ، لكنها لقطات جزئية

---

[48] - المرجع نفسه : ص 99 .

[49] - المرجع السابق ص 99.

ساذجة من طبيعة الوطن الجميلة يرسل الشاعر فيها مشاعره على سجيتها ويسلم نفسه الى ما يشبه الحلم ، على نحو ما لمسناه قبل قليل في قصيدته شكر الله الجر ، فهناك الشراع وهنا البدر وإذا نحن مع الشاعر المشوق في عالم مضيء محبب تبدو معه ربوع الوطن متشحة برؤى وأخيلة لطيفة ، مسربلة بموسيقى هادئة موقعة وقواف ساكنة منوعة تتفق وبساطة الرؤيا وتدفق الحلم .

وهكذا كان طيف الوطن البعيد مبعث الحرارة في نفوس المغتربين والبلسم لجراحهم . لقد ذابت قرائحهم في أشعارهم حتى بتنا كأننا نسمع أنين نواعير العاصي وهديل حمائم حنين وأغاريد عنادل الأرز وأنغام رعاة الماعز ورنين نواقيس القرية وتكبير مآذن الفجر .

-انه على جناح الخيال كان الشاعر المغترب يتلذذ بمتعة الوصال وينتشي بعذوبة اللقاء .

على أن أزهى صور الحنين ما انطوى على عالم الطفولة ، فذاك عالم مرح بهيج لم تستود صفحته الآلام ولم تذهب برونقه الأحزان انه عالم محبب الى الشاعر لأنه يمده بصورة مشرقة وضيئة يعيش عليها في مواجهة الصورة العابسة التي يعيشها ، وكأنها استرخاء عذب للنفس الحزينة على وسادة مخملية من الذكريات الحلوة ، إن أقل مشهد في المهجر كان يهز مشاعر النفس المرهفة عن طريق التداعي التلقائي للأفكار ويطير بها الى ربوع وطنها وملاعب صباها ،"

فوقفة على شاطئ البحر " في أحد ثغور البرازيل هاجت الوجد بالشاعر القروي فاذا هو محمول الى وطنه على جناح الخيال يناجيه :

يا نسيم البحر البليل سلام زارك اليوم صبك المستهام

ان تكن ما عرفتني فلك العذر فقد غير المحب السقـــــام

أو لا تذكر الغلام رشيدا انني يا نسيم ذاك الغـــــلام [50]

–وبمثل هذا القص المحبب يعمد الشاعر الى تذكير النسيم بعهود صباه :

طالما زرتني اذا انتصف الليل بلبنان والأنام نيام

ورفعت الغطاء عني قليلا فأحست بمزحك الأقدام

أسبق الفجر في الهبوط الى البحر وكم طاب لي به استحمام

سابحا كالأرز أنطح صدر الموج والموج زاخر لطام

غرفتي السطح زينتها سماء تتدلى من سقفها الأجرام

فكأن الفضاء صدر رحيب وكأن الهلال فيه وسام [51]

ولكن قلما تجلت ملامح الرضى والسرور على هذا النحو ، إذ لا يلبث شعاع المرح والغبطة أن يخبو أمام فيض من المشاعر القاتمة التي سرعان ما تغمر نفس الشاعر حين ينقطع عنه تيار الذكريات الممتع ويتجهم أمام عينيه الواقع الكادح ، كذلك لم تكن دفقة الرؤيا العذبة تنتهي في قافية الشاعر القروي حتى يتبدل المشهد

---

[50] - المرجع السابق : ص 101.

[51]- المرجع نفسه : الصفحة نفسها .

وينقلب وجه الصورة ، حين يصحو الشاعر من حلم الطفولة الباسمة على يقظته الكئيبة فاذا هو يستأنف القول :

يا برازيل لو أفضت علي المال فيضا ما طاب فيك المقام

مثلما تنقضي الليالي مراعا هكذا فيك تنقضي الأعوام

وإذا بالفتى من الهم شيخ تعتريه الأوصاب والآلام [52]

وهكذا كانت الحلاوة تقترن بالمرارة ، وعند صفو الليالي يحدث الكدر ، بل ان سواء الحزن كان يغلب على أكثر ما نظمه شعراء المهجر في حنينهم الى أوطانهم ، فالشاعر حسني غراب لا يرى في الذكرى الا ما يوجع ، ولا يروي غليله الا الوصال ، انه يخاطب قلبه الخفوق بقوله :

أكلما ذكرت حمص حننت الى ماض من العيش ما في رده طمع

بي مثل مابك فأكتم ما تبوح به من الأسى فكلانا في الهوى شرع

أبعد حمص لنا دمع يراق على منازل ، أم بنا من حاذث هلـــــع

دار نحن إليها كلما ذكرت كأنما هي من أكبادها قطـــــــــع

وملعب الصبا نأسى لفرقته كأنه من سواد العين منتـــــــزع

فمن لنا بمغانيها ويومئذ سيان ما تأخذه الدنيا وما تـــــدع [53]

---

[52] - المرجع السابق : ص 101.

[53]- المرجع نفسه : ص 102.

ففي مثل هذه القصائد كان ينشط الخيال بالشاعر في مهجره وتهيج قلبه الذكرى عائدة به الى عهود الصبا حين كان يخطر في الدروب ، ويجري وراء الفراشات ويرقص مع الجداول ويرقد تحت العرزال ويستحم بندى الفجر ويتطيب بعبير الزهر .

لقد كان الشوق الى تلك المرابع جامحا لم تروضه الأيام وكان الحنين طاغيا لم تطامن منه الليالي . فقد غدا الوطن نجى هؤلاء الشعراء وكعبه أمالهم وقبلة أمانيهم –ومن عجب الا تزيد السنين هؤلاء الشعراء عن مهجرهم الا بعدا وعن وطنهم الا قربا ، وأنى لهم أن يألفوا حياة الغرب شيوخا وهم ما ألفوها شبابا .أما هذا الوطن الثاني فكان يزداد في قلوبهم حبا وتقديسا ، وكأن الدين قد عفى على مفاسده ومحا مساوئه فغذا نقيا طاهرا وأخذت نفوسهم ترسم حوله هالة كانت تتسع وتزد هي على مرور الأيام وكر السنين ، وهكذا كانت تتجاوز في مخيلة المغترب صورتان متباينان يوما بعد يوم حتى تغدو احداها عذابا وجحيما ، وتغدو الأخرى فردوسا ونعيما .وكان كل ما حول الشاعر يتلون بمشاعره ويتسربل بعواطفه ويتسم بأفكاره ،أما المهجر نفسه فهو لم يتغير من أمره شئ ، وأما الوطن فهو هو لم يتبدل من حاله شئ ..ولكن ذلك المغترب الذي كان يعيش بين مد الأمل وجزر اليأس هو الذي تبدل فابدل في نظره الوجود ، ومن هنا ضاقت البرازيل على رحبها بالشاعر القروي حتى لكأنه منها في سجن :

تضيق بي الدنيا اا ذكر الحمى كأني من عرض البرازيل في حبس

يسير معي لبنان أنى توجهت ركابي لو يفني الخيال عن الحـــــس

فما أبعد الأسماء عن مسمياتها وأغرب شمس الأرض عن هذه الشمس [54]

كذلك حالت دنيا المهجر في عيني عقل الجر فإذا هو فيه "

بلبل من خمائل الشرق أقصته الرياح الهوجاء عن أوكاره

لا يرى في جنائز الأرض حسنا بعدما بان عن جنان دياره

بدلته النوى من الروض ثغرا ومن السلسبيل حرا واره [55]

-أما الحالة المضيئة التي رسمها القلب المشوق للبنان فهي التي جعلت ندمه قازان يتساءل عن سر ذلك التراب

ما السر في هذا التراب فلا يريد به ثمن

فكأنما الدنيا السما وكأن لبنانا عدن [56]

حتى أن شغف الشاعر بلبنان جاز منزلة القداسة وبلغ درجة التالية حين رأى فيه الجمال المطلق الذي لا يحد لأن الله خلقه على صورته :

بسم الله الجمال مجسم فتجلى لبنان حين تبســم

هو كالله لا يحد بعين وهو كالله ما أجل وأعظم [57]

---

[54]- المرجع السابق : ص 103 .

[55] - المرجع نفسه : الصفحة نفسها .

[56]- المرجع السابق ص 103.

[57] - المرجع نفسه ص نفسها .

لقد بلغ الشاعر الغريب أقاصي الأرض وشهدت عينه فيها جلال السحر ، ونقل فؤاده حيث شاء من الهوى .. ولكن حبه ما كان إلا للحبيب الأول ، وكأن الشاعر أبا تمام قد عناه في قوله :

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل [58]

وهو لم يكن يعدل بذلك كله حسن ضيعته وجمال عرزالها وحلاوة نبعتها ، ألم يجد شاعرنا العربي المتيم أن الشمس على جدار حبيبته أجمل منها على سائر الديار وهكذا تراءى الوطن في مخيلة شعراء المهجر موئلا للسعادة المثلى وصورة فريدة في صور الخلد ن وعروسا فاتنة من عرائس الكون ، وجوهرة مكنونة في قلادة الدهر ، لا سماء كسماعه ، ولا جبل كجبله ، ولا هناء الا في ربوعه ، حتى لكأن الدنيا قد تجمعت فيه .وقد يبدو هذا الإيثار غربيا على منطق الذهن ، ولكن متى كانت المنازع العاطفية والدوافع الشعورية تحتمل حدود المنطق وأسره ، وصرامة العقل وجفافه ؟وهل من تفسير سوى العاطفة يبرر تعلق المرء بوطنه وإيثاره إياه على سائر الأوطان ؟إن هذا قوام كل نزعة من نزعات الإعجاب واذ يبلغ الحنين الى الوطن هذه المنزلة منزلة القداسة بل التالية ، فان وصاله يغدو غاية الغايات ، وإذ ذاك لافرق في أن يتم الوصال في الحياة أو يتم في الممات ، وكما تلهف نسيب عريضة شاعر المرابطة القلمية على العودة

---

[58] - المرجع السابق ص 104.

الى حمص ولو حشو الكفن جرد نغمة قازان من نفسه ذلك المغترب الذي يناجي وطنه :

لم يرض بالدنيا ويرض من ترابك بالكفن[59]

كذلك ما فتئ الشاعر القروي يردد في مهجره بمرارة :

<<بت أفضل قبرا في وطني على قصر في غربتي >> ، وحين أشرق في وجهه عامل العودة استبد في نفسه الفرح فإذا هو يهش لاستقبال الموت في وطنه مرددا في جذل :

بنت العروبة هيئي كفني أنا عائد لأموت في وطني [60]

حتى إن هذا الشاعر يجعل وصال الوطن دليل الوجود والعدم ، ومعيار الحياة والموت ، فالحياة في الغربة هي الموت والموت في الوطن هو الحياة :

ما عاش من عاش عن لبنان مغتربا ولا قض من قضى بعد النوى فيه [61]

وإذا لم يقبض الله لشاعر مثل عقل الجر ان يستلقي في واحة وطنه حيا فلتتقيأها رفاته بعد أن يغادر هذه الدنيا ويتوارى عن صفحة الوجود وتلك كانت وصيته :

ان حرمنا من نعمة العيش فيه لا حرمنا من مرقد في جواره [62]

---

[59] - المرجع السابق ص 105.
[60] - المرجع نفسه الصفحة نفسها .
[61] - المرجع السابق ص 105.
[62] - المرجع نفسه ص 105.

فلقد اشتدت منازع الوجد بهذا الشاعر نحو وطنه حتى صارت لديه أقوى من الموت نفسه في هذه الصورة البديعة :

وشوق تنتهي الدنيا ويبقى وراء القبر يلتهم الترابا

وهكذا شبت الشاعر الحنين في نفوس شعراء المهجر فعندما يتعذر لقاء واحد منهم لوطنه في واقع الحياة كان يطير اليه على جناح الخيال أو يلوذ بسحر الطفولة ولذيذ الأحلام ، ولكنه عندما تصحو مشاعره المخدرة على خيبة الواقع ومرارته وترتد أبصاره عن بريق السراب والرؤى لتصطدم بصخور اليأس ...فان أماله كانت تضيق حتى تنحصر في أمنية واحدة لا تعدوها الى سواها وهي الموت في الوطن .والأنة تنطوي هذه النفس المعذبة على منتهى الحنين حين يبلغ بها الوجد مرحلة الفناء في الوطن والاتحاد بترابه ، وعندئذ يغدو الموت هو الوصال المنشود الذي تجسد فيه الحلم الكبير ، حلم العودة والخلاص من حياة التيه ...

ذبك المغترب الذي هجر فردوسه المفقود واقتلع نفسه من كل ما تحب وتألف الأرض الطيبة ...حيث كانت تعثر في ثغرة بسمات صباحه ، وتكتحل عيونه بسواد ليله ، وتغفو أجفانه على لذيذ أحلامه ...ذلك المغترب وجد نفسه في مهجره معلقا في فراغ مخيف يحدق اليه النظر فلا يبلغ أعماقه ، ويسفك فيه عافيته من أجل لقمة العيش فنتأبى عليه ...فإذا هو بعد ذلك والغربة تعصر قلبه رمز يجسد

للضياع ، أضاع وطنا ولكنه أخفق في أن يجد عنه بديلا ، فهو أبدا تائه لا يفتأ يتساءل مع الشاعر القروي :

حتام أحيا غريب مالي وطن[63]

وعن مثل هذا الشعور بالضياع عبر أيضا شاعر مهجري من الشمال هو إيليا أبو ماضي فقال :

وطني ، ستبقى الأرض عندي كلها حتى أعود إليه أرض التيه[64]

2- الى الطبيعة (الغاب) :

منذ أبدع الله الطبيعة على مثاله وجبل الإنسان من ترابها ما فتئت النفس الشاعرة ترتشف رحيق الجمال من مفاتنها وتصوغه أناشيد عذبة ترن في مسمع الدهر ، كذلك كان الشاعر العربي القديم ، أنه وصاف بارع يحرص على أن يجعل من قصيدته لوحة متقنة الصنع تمتاز بدقة ملامحها وغنى ألوانها ، ولكنه في الغالب كان يكتفي بهذا الرصد الأمين والرسم الدقيق اتجاه ما تقع عليه حواسه ، من معالم الجمال دون أن يتعمقه أو ينفذ الى ما وراء مظاهره الزاهية من معان خفية تنبض بالحياة وتثير كامن المشاعر ، فهو على حبه للطبيعة وإحساسه القوي بمحاسنها كان يجنح الى تجسيمها بخياله وتجميلها بصورة فيجيد الصناعة ويحسن الصياغة ولكنه قلما كان ينفخ فيها من روحه ، فلا ما كان منه في بعض الشعر

---

[63] - المرجع السابق : ص 107.

[64] - المرجع نفسه الصفحة نفسها .

الأندلسي ، لقد نظر الشاعر العربي الى تلك الطبيعة على أنها عالم جميل حافل بالمفاتن ولكنه عالم مستقل غني بذاته يقابل عالم الإنسان ويغايره ، وقد استمر هذا الفهم التقليدي للطبيعة في جانب من الشعر العربي الحديث ، ولكنه انعطف في أدب المهجر بوجه خاص نحو مسار جديد حين جعل الشاعر من نفسه جزءا من الطبيعة ، بل ان الاغتراب زاده لصوقا بها وتعاطفا محضا واطمئنانا إليها ، فإذا هو ذائب النزوع الى أن يندمج معطا وتتدرج معه فيما يشبه الحلول الصوفي المتبادل ، ولكن كان في غربته يناجي الجبال ويرعى النجوم ويستنطق الصخور ويناغي الطيور ويقرأ في سفر الكون أسرار الجمال وآيات السحر وعن مثل هذا الإحساس العميق بمفاتن الطبيعة يعرب الشاعر القروي في نشوة بالغة :

<< ...واذا طغى الجمال كما في لبنان فجمع بين سمو الجبال ونضرة السفوح وترقرق الجداول وزرقة البحر والسماء ردني الى خشوع يلصق جبيني بالتراب ويسكب من عيني وشفتي تسبيحة رطبة حارة . وقد يتجسم شعوري بصلة القربى بيني وبين هذه الألوان فأنعطف على الشجرة أعانقها والصخرة أضمها والزهرة أناغيها والمرجة أتقلب عليها ، وأما ذراعي الى السماء أحييها وأبعث الى الشمس بقبلات على أطراف بناني ...>> [65]

وان هيام هذا الشاعر بالطبيعة ليس له حدوده فهو يتلهف على استجلاء محاسنها ونعشق أسرارها ويتوق الى معانقة الوجود والاتحادية الى درجة العبادة:

---

[65]- عمر الدقاق : ملامح الشعر المهجري ، مطبعة جامعة حلب 1978 . ص 197.

من نفس تود لو تغمر الكون هياما بحسه المعبود

مثلوا لي هذا الوجود بشئ أنا لا أستطيع ضم الوجود [66]

وبمثل هذه النشوة الصوفية العميقة يستشعر جبران خليل جبران سعادة أسرار الجمال الأزلي قائلا :

في بهجة الحقل والغدران هازجة أحس بالله في عيني يلثمني

في قبلة الشمس والانسام تحضنني كأنما الله مشتاقا يعانقنـــي [67]

وهذا في نظر الرومانتكيين سر الجمال الأخاذ ومجتلى قدرة الخالق المبدع إذ الطبيعة –كما يقول شاتو بريان –خرجت من يد الله .

لقد بدت العصافير والحمائم والورق والعنادل وما الى ذلك من أنواع الطير ومظاهر الطبيعة الحية ألصق بنفوس الشعراء لما أنسوا فيها من روح تشابه روحهم وحياة تقارب حياتهم . وكما طاب للشاعر القديم مناجاة بنات الهديل وأسراب القطا وأنس بمحادثة الحمامة والورقاء دأب الشاعر الحديث في أندلسه الجديدة على مصاحبة الطير وبثها نجواه .

فالشاعر الياس فرحات يرى في حمامة الوادي ما لا يراه في الانسان نفسه فهو يخاطبها بقوله :

غني على تلك الغصون أو أندبي فلأنت مخلصة وغيرك يدعي [68]

---

[66] - المرجع نفسه ص 197 .

[67] - المرجع نفسه ص 197.

[68]- المرجع نفسه ص 198 .

لقد بلغ من ألفة الشاعر المهجري للطائر أنه وجد فيه صورة لنفسه ورمزا لوجوده على غرار ما ناجى به القروي هذا العصفور:

هل أنت يا عصفور مثلي غريب هل لك مثلي اخوة في الوطن ؟

هل أنت مثلي هاجس بالحبيب من ذا الذي تهواه يا طير من ؟[69]

كذلك يشدو رياض معلوف مع عصفوره قائلا :

عن يا عصفور غني لي ألحان التمنـــــي

هذه روحي طارت في فضا لحنك مني

فأرى شدوك شدوى وأرى لحنك لحنـــي

ليت قلبي في جناحيك وفي المنقار سنـــــي [70]

وكثيرا ما كان شاعر المهجر يرى في الطائر شاعرا أخر مثله يشجي الكون بألحانه ويملأ دنيا الناس بأغاريده ، فعقل الجر يأسى لصمت رفيقه شاعر الخمائل ولا يهنأ له بال وتزول له وحشة الا اذا رفرف بليله من حوله مغردا :

فديتك غرد أيا طائـــري لعلك تهدئ من ثائـــــري

ألم تك في وحدتي مؤنسي أبثك ماجاش في خاطري

فيا لك من شاعر ناثـــرا دموع الوفاء على شاعـــــر

فديتك غرد ولا تبتئـــس فلست على الصمت بالصابر [71]

---

[69] - المرجع السابق ص 199.

[70] - المرجع نفسه ص 200.

[71] - المرجع نفسه ص 200.

كذلك لم يجد شكر الله الجر كهذا الطائر خلاوفيا ، لقد أسماه أيضا (شاعر الغاب) وراح يناجيه بحنان :

حسب نفسي اني وجدت أليفا ضمدت كفه جراح حنيني

وافقت روحك الحنونة روحي فائتلفتا على صدف وشجون

طر وغرد واستنزف الفلذ الحمراء شعرا يذيب قلب الحديد

ان شعرا لم يصطبح بدم القلب كشعر لم يصطبغ بالخلود

قدست الوحي والهوى ما نغنيه بلا كلفة ولا تقليد[72]

وهكذا إذا شاعر المهجر وشاعر الغاب شيئا واحدا .

وكثيرة هي القصائد لشعراء المهجر التي تنجو هذا المنحى العاطفي وتعرب عن هذا التجاوب الشعوري وتمة مقطوعات عديدة تتناول موضوع البلبل في القفص فترثي لحاله وتأسى على حريته ، لقد رسم رياش معلوف في قصيدته (الهزاز المنتحر) صورة رومانتيكية مؤثرة لتلك الروح الرقيقة و قد هاض جناحها الأسر فلم تعد تجد للحياة بعد معنى ، كما وجد فرحات إلياس في مصرع بلبل في قصيدته (الزغلول الوحيد) و (رثاء بلبل) ، مأثما شاركت فيه الطبيعة حزنا على شاعر الغاب .

---

[72] - المرجع نفسه ص 200.

و هكذا كان شأن شاعر المهجر في تعاطفه مع الطائر ، فقد وجد فيه صورة من حظه العاثر ورمزا لمأساته الأليمة ، فكلاهما تائه عن عشه يغرد يشجو و يدخل السعادة على القلوب و لكن هيهات أن يحظى بحسن المآل .

إن في إندماج أدباء المهجر بأبناء الطبيعة على هذا النحو ما ينم على أبرز الملامح الرومانتيكية التي تتجلى في الشعر العربي و الغربي على السواء من نحو ما نجده لأبي فراس في مناجاته الرقيقة للحمامة وهو في أسره ، أو مناجاة المعري للورقاء و هو ناء عن بلده ....أو ما نجده أيضا لدى الشعراء الغربيين فيه منازعهم الرومانتيكية المماثلة ، في مثل قول << كيتس>> (اذا رأيت عصفورا أمام نافذة حجرتي كنت جزءا منه أنقر معه الحصى كلما نقر....) أو قول " شلي " مشبها نفسه بالطائر على غرار ما لمسناه لدى شعراء المهجر : (الشاعر بلبل جلس في الظلام يسري عن الوحدة بالنغم العذب ...)

كذلك أطال شعراء المهجر في غربتهم مناجاة القمر فقد ألفوا صحبته في ساعاتهم الحالمة وأطالو نجواه في ليلليهم الساجية ، حتى أنهم نفخوا فيه من روحهم وأحلوا فيه عواطفهم وباتوا يرون في وحدته صورة لوحشتهم ومرأة لأنفسهم ففي قصيدة (أنا القمر)يلوذ شكر الله الجر بهذا الخل الأمين ويسائله عما يختلج في نفسه من نوازع القلق والشك اتجاه الوجود عله يجد لديهالجواب اليقين :

يا بدر جنتك سائلا فعساك تسمعني جوابا

ماذا يفيد المرء من دنياه أن بلغ الرغابـــــا[73]

والقمر يجيبه إجابة الرجل الحكيم على نحو ما أجاب الجبل الوقور شاعر الأندلس ابن خفاجة:

لك في الذين مضوا مع الأجيال واندثروا عبر

سيظل سرا ما تجلي من وجودك واستتر

لا شئ يا ابن الأرض يضمن للنفوس خلودها

فخذ الحياة كما تدور مغردا تغريدها

كذلك كان القمر نجي الشاعر فرحات في وحشته وسميره في وحدته ، انه يترقب بزوغ رفيقه الوفي باطلالته الباشة ليسر له ما بقلبه ، ولكن رؤية ذلك القمر ما كانت الا لتصيح أشجانه وتزياه وجدا على وجه :

اني انتظرت القمر أشكو له أمري

فازددت لما ظهر حمرا على جمر[74]

لقد أنس الشاعر المهجري في نزوعه الرومانتيكي الحالم بكل مظاهر الطبيعة ، فالليل الذي اعتاد الشعراء أن يشكوا تطاوله ووطأة الهم خلاله هو عند شكر الله الجر رفيق وحدته وأنيس غربته ، ولكم أحب هذا الشاعر الليل وأطال نجواه ،

---

[73]- المرجع نفسه ص 202.

[74] - نفس المرجع ص 202.

حتى ليصح أن ننعته بشاعر الليل ، وهو الذي أطلق على أخر مجموعاته الشعرية اسم (أغاني الليل) ، وما أشبهه بجبران خليل جبران الذي دأب على مناجاة الليل بعبارات شاعرية تفيض رقة وعذوبة ، وها هو ذا يقول في قصيدة عنوانها (في كهوف الليل)

أنت يا ليل حبيب لقلوب الشعراء

فلكم عزيت قلبا لم يكن يرجو العزاء

ولكم ضمدت جرحا لم يكن يرجو الشقاء

لك دنيا غير دنيا النور حسا وشعور

أيها الليل ، وكم من كاره لون السواد

حاسبا في ثوبك القاتم رمزا للحداد

أي كحل لم يكن من كحل عينبك مذاب

أنت يا ليل العزاء لنفوس الغرباء وقلوب الشعراء [75]

فالطبيعة على جمالها لم تكن تقصد لذاتها من قبل سائر شعراء المهجر ، بل كانت في الغالب سبيلا الى انطلاق المشاعر الذاتية وتوليد أعمق النوازع والتأملات .

ويمكن القول أن إطلاق لفظة الجمال على الطبيعة تعبير مجازي محض فهي –كما يقول كروتشه –شئ بليد إذا قورنت بالفن ، وهي خرساء إلا إذا أنطقها

---

[75] - عمر الدقاق ، ملامح الشعر المهجري سنة 1978 مطبعة حلب ص 203 .

الإنسان . ولعل هذه الظاهرة من أبرز خصائص النزعة الرومانتيكية في الأدب فوقفة شكر الله الجر حيال شلال (تيجوكا) شديدة الشبه بوقفة " لامارتين" إزاء بحيرته في انطوائها على سبحات الخيال والتأمل ، إن عواطفه الجياشة تتدفق مع مياه الشلال في قوله:

أشلال نيجوكا ماذا النواح أتبكي نظيري نعيما عبر

ترى ، أنت عين الزمان تثر الدموع أم أنك صوت القدر

غسلت بمائك عيني وعدت فأبصرت ما الناس لا تبصر

فبالله قل لي إلام تطل كذلك تجتازك الأعصر

وأنت تكل كرور الزمان فلا تستقر ولا تفتر

وهذا الوجود كما كان قبل شعوب تجيء وأخرى تروح

ودنيا تضج بسكانها فهذا يغني وهذا ينوح

وذلك مستسلم للقدر[76]

مثل هذا الاندماج الشديد بالطبيعة ان هو الا رد فعل حاد الانفصام الكبير بين الشاعر الرومنسي وبين المجتمع ، فقد حلت الطبيعة لديه محل البشر ونالت من حبه وإجلاله مالم ينالوا، إنها السفر العظيم الذي يتجلى فيه الخالق ، ولهذا اتخذ شعراء المهجر من رحابها معبدا يتبتلون فيه ويتملون أسرار الكون على غرار ما نجده في قول الشاعر فرحات :

---

[76]- المرجع السابق ص 204.

وأنا مذ عقلت يفضل عندي معبد الإنسان

فلها ركعت فوق ندى العشب في هيكل رحيب الجنان

قائم بين أربع من جهات الأفق لا مثلها من الجدران[77]

أو ما نجده في قول شكر الله الجر :

هم يعبدون الله في ري راهب وأعبده بالنور والماء والزهر

وأعبده بالبحر والصبح والدجى وأعبده بالشمس والنجم والبدر[78]

إن مظاهر الطبيعة لم تعد لدى الشاعر الرومانتيكي الغريب مجرد نسائم وأزهار وأطيار وحقول ونجوم.... تجاوز عالم الواقع أو تكون امتداد له ، ولكنها عالم أخر متميز ، عالم واهي الصلة بعالم الناس ، انه الغاب كما يحلو لكثير من شعراء المهجر أن يسموه ، لقد دأب هؤلاء الشعراء على اللوذ بالغاب جاعلين منه عالما مثاليا طاهرا يقابل عالم الواقع الفاسد ، وما الغاب الا رمز للطبيعة البكر والحياة المثلى .

والى هذا العالم المجرد الجميل يهرع الشاعر القروي مع فتاته حيث السعادة المطلقة في (الربيع الأخير) :

طيري ننقر مع الأسراب في فرحه إن طرن لن تجدي حبا ولا ثمرا

لنا من الشفق السحري أجنحة فما التفاعك في جنحي دجى وكرى

---

[77]- المرجع السابق ص 204 .

[78]- نفس المرجع ص 205.

عيب علينا نكون البلبلين ولا نشارك الطير في أعيادها سحرا

أما ترين الدجى لمت غدائره سودا فنشرها رأد الضحى شقرا

والغاب ألف جوقا من عشيرته الريح والنهر والأطيار والشجر

رف النسيم على أدواحه فيها ما بالمحب اذا طيف الحبيب سرى

والريح تنفخ نايات الغصون على سمع العقيف فيجري دمعه غدرا

ناحت على أرزها المهجور شارحة ما رجع الشاعر المنفي مختصرا

هيا الى الغاب اني قد بنيت لنا من الرياحين عشا لينا عطرا

تحنو علينا ظلال ألايك رقطها من الأشعة كف ترسم النمرا [79]

فقد رأى القروي في أحضان الطبيعة الحانية كل أيات الخير والجمال ، بل لا خير ولا جمال فيما عداها ، ومثل هذه النظرة للقروي تشبيه بنظرة الشاعر الرومانتيكي (ووردز ورث) حيث جعل الطبيعة الموئل الذي يتكلم فيه الانسان أكثر مما يتكلمه الحكماء جميعا ، وأن هذه الخاصية الشمولية في نفوس الشعراء المهجريين تنطوي على رفض المسلمات الفكرية والاجتماعية وعلى رغبة ملحة في الانطلاق الى اللا محدود حيث يتحرر المرء من كل ما يعوقه ، وهي تعبير حار عن عزوف ذلك المهاجر عن عالم المادة المصنوع ونزوعه الشديد الى عالم الغاب المطبوع ،حيث تحظى النفس البشرية المعذبة بالسعادة وتنعم بالطمأنينة بين ربوع الطبيعة الساحرة .

---

[79]- المرجع السابق ص 205

انها طبيعة الوطن التي لا يعدلها جمال في الكون ، وهي لم تبد كذلك في مخيلة الشاعر المغترب الا هالة زاهية قد رسمها حولها البعد والشوق فغدت ذلك الفردوس المفقود ، ومن هنا التحم وصف الطبيعة بشعر الحنين وتداخلت مشاعر اللهفة والشوق في مناظر الوطن وربوعه ، لقد كانت الطبيعة في الغالب قوام عاطفة الحنين في نفس ذلك المغترب .ومن الأمثلة على هذه الظاهرة قول رياض معلوف مناجيا (لبنان) :

أنا ريشة من طيرك الصباح في الجو الرحيب

بل قطرة من نهرك الصخاب بالموج الغضوب

أنا قطعة من أرزك العلم المفدى بالقلوب[80]

وهكذا أحب شعراء المهجر جمال الطبيعة حبا جما واتحدوا بها اتحادا صوفيا عميقا وطاب لهم أن يجعلوا من ربوعها الجميلة مسرحا لعواطفهم وأفكارهم ، وان يشخصوا مظاهرها على نحو إنساني مملوء بالحركة مفعم بالحياة ولعل هذا التعانق الحار بين الطبيعة والقريحة في أشعار المهجريين ، هو الذي حبب أشعار المهجريين الى النفوس وجعلها غرة الأدب العربي الحديث .

3- الحنين الى العالم المجهول (عالم الروح):

أما الحنين الى العالم المجهول الى عالم الأرواح فقد ظهر شئ منه في كتابات الصوفيين ، من الكتاب والشعراء ، وليس هذا الحنين من صلب التفكير العربي

---

[80]- المرجع نفسه ص 207.

على ما يظن ومرجعه الأول كتابات أفلاطون وأمثاله من فلاسفة اليونان ، إذا فهناك عالم أخر هو عالم الله أو عالم الروح الأكبر ، وإذا فأصحاب هذا المعتقد لابد لهم من الحنين الى عالم الروح وهو منحى من مناحي الصوفية ورغبة من رغباتهم وصوفية بعض المهجريين هي في حقيقتها صوفية مسيحية ومما قاله نسيب عريضة مخاطبا نفسه :

أصعدت في ركب النزوع حتى وصلت الى الربوع

فأتاك أمر بالرجوع أعلى هبوطك تاسفين[81]

فيقول " منذور" معلقا << تلك نغمات أفلاطون الشعرية الجميلة يوم حدثنا عن هبوط النفس من عالم المثل الذي لا تستطيع أن نغالب الحنين اليه ، ولكم جرت بذلك أنفاس الشعراء منذ " ابن سينا " الى " لا مارتين " وهو مذهب قديم عند كبار الشعراء ، اذ نراه من أهم خصائص" هوميروس " الذي يسبه البشر بأوراق الخريف>>

ويقول ميخائيل نعيمة :

ايه نفسي أنت لحن في قد رن هذاه

وقفتك يد فنان خفي لا أراه

أنت ريح ونسيم أنت موج أنت بحر

[81]- وذيع ذيب : الشعر العربي في المهجر الأمريكي ، ط2 ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان أفريل 1993 ص 119.

أنت برق أنت رعد أنت ليل أنت فجر

أنت فيض من اله[82]

ويقول فوزي المعلوف :

أنت يا روحهم من النور ذرات أضاءت في الكون في عالميه

تصل الأرض والسماء بنهر غمر الحسن والهوى ضفتيه

لست من عالم التراب وان كنت تقمصت بالتراب عليه

أنت من عالم بعيد عن الأرض يفيض الجلال من جانبيه[83]

4- الحنين الى الأم :

كذلك أنتج هذا الحنين ما بوسعك بأدب " الأمومة " ولعل الشاعر القروي أولى من يحق له أن ينال هذا الشرف ومن قوله :

عدوي لا تظن الشهد شهدي ولا المن الذي استحليت مني

فلي أم حنون أرشفتني سلاف الحب من صدر أحن

على بسماتها فتحت عيني ومن لثماتها رويت سنـــــي[84]

ومن شعر الأمومة الموجع قول أمين مشرق مشيرا الى الجوع الذي حدث بلبنان من جراء ظلم المستعمر التركي :

يا نسمة الصبح لامسيها وبردي قلبها الحزيــن

---

[82]- المرجع نفسه ص 120.

[83]- المرجع السابق الصفحة نفسها .

[84] - وذيع ذيب : الشعر العربي في المهجر الأمريكي ط 2 ، دار الملايين ، بيروت لبنان ، أفريل 1993 ص ص 108 – 110.

يا نسمة الصبح قبليها في الخد عني وفي الجبين

أماه بالله ما دهـــــاك وما دهى إخوتي الصغار[85]

ومن هذا الشعر الزاخر بدفء العاطفة نحو الأم وتقديس الوجبات النبوية قول أبي ماضي :

وأنت قال الصحب واستضحكوا هل لك حسناء تحبيها

قال : أجل اشري سر التـــــي بالروح تفديني وأفديها

لا تترضاني ريـــــــــاء ولا تلثمني كذبا وتمويهـــا

يضيع مالي ويزول الصبـــــا وحبها باق وحبيهـــــا

سر التي لا غادة بينكم مهما سمت في الحب تحكيها

فصاح رب الدار يا سيدي وصفتها لما لا تسميها

.....

أتخجل باسم من تهوى أحسنا ، بغير اســـــــــــــم

فاطرق غير مكترث وتمثم خاشعا .....أمي [86]

فان دلت هذه القصائد على شئ ، فانما تدل على حنين مذيب تسامى بالنفس فاذا الأم في الذروة من البشرية واذا الأمومة أقدس ما عرف الانسان من حب

---

[85] - المرجع نفسه ص 110.

[86] - المرجع السابق ص 111.

واخلاص ولعل في ذلك دعوة غير مباشرة لاحترام المرأة الشرقية واجلالها المحل اللائق بها.

3- الحيرة و القلق و اليأس :

و إذا كان الوطن هو الذي دفع شعراء المهاجر الأمريكية إلى الحديث عن الطبيعة و الغاب حديث الظامئ الوامق ، بل حديث العابد الخاشع ، فإنه هو الذي ملأ نفوس كثير منهم و أشعارهم بالحزن القاتم ، فأنت قلما تقرأ لشاعر عربي في أمريكا الجنوبية أو الشمالية ، حتى تشعر بلدغ الأسى فيه ، و استمع إلى فوزي المعلوف إذ يتصور إلياس القاتل ، يقول في رحلته على بساط الريح

ألف اليأس قلبه ، فهو و اليأ****س يحاكي بثينة و جميلا

و إذا اليأس صد عنه قليلا **** راح يبكي على نواه طويلا

و إذا ما النسيم مر عليه **** فعلي أتى يعود عليلا

حائر الطرف شارد الفكر يحكي ****مدجلا في الظلام ضل السبيلا[87]

و هذا اليأس و ما يدمج فيه من حزن مصدره الغربة و الإحساس بالشقاء بعيدا عن الوطن ، و الشعور بالحرمان من الأهل و الأصدقاء فتبا و الحياة و كأنها الفقر الموحش ، و يبدو الوجود ملما مخيفا ، فإذا الشاعر لا حول و لا قوة ، و إذا

[87]- شوقي ضيف ، دراسات في الشعر العربي المعاصر ،الطبعة السادسة ،دار المعارف ، السنة 2003 ،270.

هو مستسلم للحزن و اليأس ،و إذا هو لا يملك غير دموعه و يرسلها أنات و زفرات و إنه ليشعر دائما بأنه غريب ، و أنه في عزلة عن الناس ، و أنه ليس ممن حوله، و لا من حوله منه ، فيعيش كالطير السجين في قفص قضبانه من ذهب و كنه لا يهنأ يوما ، لأن جوه و افقه الذي يرفرف و يحلق فيه سلب منه .

ومن هنا كان التشاؤم يغلب على شعر كثير من هؤلاء المهاجرين ، فالشاعر يشخص بصره إلى ما حوله فلا يجد ما يعزيه أو يسليه فضلا عما يسره أو يفرحه ، إنما يجد البؤس و الشقاء و الحرمان ، فحياة البشرية جميعا يجللها السواد، و ليس هناك أمل في مستقبلها ، بل مستقبلها مظلم كحاضرها لا يبشر بالخير ، إنما يبشر بالشر و بالحرب و بالدمار ، و لم ينته هذا الشعور بشعراء المهاجر إلى الثورة على الحياة ، بل انتهى بهم إلى الشفقة على بني جنسهم ، على نحو ما نرى عند " نسيب عريضة " إذ يقول :

علقت عودي على صفصافة اليأس

و رحت في وحدتي ابكي على الناس

كأن في داخلي قبرا بوحشيته دفنت كل بشاشاتي و إيناسي

يا قبر آمال نفسي في ثرى كبدي يسقيك صوب دم من قلبي القاسي

ورعت فوقك أزهارا بلا أريج سوداء مرت عليها نار أنفاسي

ما أروع الزهرة السوداء قد سقيت

بدمعة القلب تحميها يد اليأس

يا يأس صنها فإني قد قنـــعت بها و لست ايدلها بالورد و الأسى

وأنت و الزن كونا في الضلوع معي إني عهدتكما من خير جلاسى

كتمت امركما دهرا فضاق بنا ذرعا فؤادي و أفشى السر أنفاسي

فإن اسر في اللام الليل مستنيرا فالحزن يسطع من عيني كنبراس

حزني غنائي فلو فرقته محبة على النفوس لأثرت أنفس الناس

فهو يبكي على نفسه و على الناس ، و تتراءى له الدنيا من حوله على اتساعها كأنها قبر ضيق ، و قد دفن في هذا القبر كل آماله و مسراته ، و استنبت فوقه أزهارا سوداء ، هي أزهار يأسه و مسراته ، و استنبت فوقه أزهارا سوداء ، هي أزهار يأسه و تعسه و حزنه ، و هو قانع بها إذا اتخذها جميعا ذفره من دنياه ، و هو لا ينتهي إلى الإنكماس في حدود نفسه ، بل إنه ليفكر دائما في الناس من حوله و آلامهم و متاعبهم ،و إنه ليأسى لهم جميعا ، و من سار منهم على الطريق ، و من ظل عن الجادة ، و استمع إليه يقول :

جاس في قلبي عزيف من وتر يسكر القلب و يفشي ما سر

ضـــــاق ذرعا بالأسى لكنه ظل في كمانه حتى إنفجـــر

فاسمـــــــعوا أنـــاته تروي لكم رجع ما ردده صوت الغير

عن الظلام العيش، عن سجن البقا عن فيافي التيه ، عن ظلم القدر

عن ليال الويل ، عن قطع الرجا عن ذنو البين ، عن بعد المفر

عن خداع ، عن شقاء ، عن شجا عن فراق ، عن دموع ، عن سهر

عن شـــــــقي ، عن أبي عاثر ، عن شريد ، عن نبي محتقر

عن فقير حاسد طير السما عن طريد ماله العمر مقر

عن عذاري بذلت أعراضها من سبيل العيش بئس المتجر

عن ديار بعد مجد خملت و بنوها السيد صاروا في النفر

ما بقي من عز أجداد لهم غير ذكري من غذ ضمن الحفر

عن ...و كم من أنة ض و تري في صداها عنعنات عن خبر

باطلا ترجون لحنا مفرحا قطعت أطراب أوتاري العبر

فادعوا قلبي مع الباكين في مأثم العيش على حال البشر

فنسيب عريضة " مملوءة حزنا على نفسه و عيشه ووطنه بل على البشرية و ما تتردى فيه من ألم و شقاء ، بل هو مملوء ياسا ، لكن ياسه على ينتهي به إلى تمرد على القضاء ، فهو في شعره دائما وادع رقيق ، وهو ذلك يبكي مع الباكين على البشر و ماهم فيه من عذاب واصب ، و ما الحياة ؟ إنها ليست إلا تأوهات و زفرات ، و إن الشاعر ليحدق ببصره فبها فلا يرى إلا تلك الأشباح القاتمة الخرساء ، اشباح الحزن و الهم و الياس و الألم ، فيندفع في تصويرها مخاطبا قلمه و متحدثا عنه:

اوه ! الم يكتب لهذا القلم إلا بأن يشكو الأسى و الألم

يا قلمي الشارب خمر الشجا و المسمع الطرس صرير النقم

من أي غصن قصك المبتري من أي عيم قد سقتك الديم

افي حمى الغربان ثقفت أم بين خوافيها ألفت الظلم

نشأت نعابا فلا غرور أن تحسب أن النعت كل النغم

أم كنت عودا عند مستنقع فيه نبتة تمتص ماء الرمم

أم عشت في ظل من الغاب لم تشرق عليه الشمس منذ القدم

فاسكب على الأبيض من أسود يلدغ في الأوراق لدغ الحمم

ما الحبر ما تنفثه ناقما ذاك سويداء الحشا يا قلم[88]

و ليست قلم نسيب عريضة " هو القلم الشاكي الحزين وحده بين أقلام شعرا المهجر ، فأكثر أقلامهم محزونة يشويها اليأس ، و لكن في هذا الإطار الذي نجده عند " نسيب عريضة " ، إطار العطف على الإنسانية .

على أن هذا الحزن و الألم عند شعرا المهجر لم يدفع جمهورهم إلى لون من الشك على نحو ما هو معروف عند أبي العلاء ، فقد حملت كثرتهم في صدورها قلوبا مؤمنة ، و من هنا لم ينقموا على السما و لا تمردوا على ربهم ، و لعل ذلك ما جعل التسليم للقضاء و القدر يشبع في أشعارهم و لا شك في أن هذا التسليم

[88] شوقي ضيف ،دراسات في الشعر العربي المعاصر ،ص 273.

نزعة شرقية ، و استمع إلى " رشيد أيوب " يقول في قطعة تحت عنوان << المسافر>>

دعته الأماني فخلى الربوع و سار و في النفس شيئ كثير

و في الصدر بين حنايا الضلوع لنيل الأماني فؤاد كبير

فحث المطايا و خاض البحار و مرت ليال و كرت سنون

و لم يرجع

و مرت سعود و جاءت نحوس و قد نصل الدهر صبغ الشباب

فعلل نفس رمتها اليؤوس ببحر هموم علاه الضباب

أيا نفس ! صبرا لحكم القضاء و يا نفس مهما دهتك الشجون

فلا تجزعي [89]

فهو يدعوا نفسه إلى التسليم للقضاء و أحكامه ، و أن لا تجزع مهما صب القدر عليها من هموم و شجون ، و مثل هذه النظرة الهادئة لنوائب الحياة هو الذي يجعل كؤوس الألم المتداوة بين القوم يعوها حباب من قبو الحياة كما تعلوها إبتسامات من حين إلى حين ، بل إننا نجد شاعرا يأخذ بفلسفة التفاؤل و بعيش في شعره و دواوينه المختلفة يدعو لها دعوة حارة .

الشكوى و الألم :

[89] المرجع السابق :274.

ففي هذا الشعر من ناحيته الإنسانية جانب واحد من المشاركة الوجدانية وهو الجانب الحزين البائس الذي يتشح بالسواد و تتدفق فيه الدموع و يعتصره الشك و التساؤل و تعصف به الحيرة و التردد.

إن أدب المهجر قد خضع لمبادئ الحركة الرومانتيكية ، و لهذا فالحزن الذي يتسم به شعر المهجر طبيعي فيه .

ومن أخص مظاهر شعر شعراء المهجر الحزن و البكاء و النوح و تمجيد الألم و كل شعر تعرى من هذا العنصر فليس هو في نظر الرومانتيكيين من الشعر الحقيقي في شيئ و ذك قال " دي موسيه << إن أبدع الأغاني ما تسربل بالأسى >> و هذه الصفة تبدوا واضحة من شعر المهجر ، يصف فوزي المعلوف الشاعر فيقول :

و جبين ألقت عليه شجون ألا قس ظلا من العبوس ظليلا

فهو لا يعرف التبسم إلا عندما يستعيد حلما جميلا

ألف اليأس قلبه فهو والي أس يحاكي بنيته و جميلا

و إذا ما النسيم مر عليه فعليل آتى يعود عليـــــلا [90]

و طالما كان فوزي المعلوف ينادي الموت ، و يستحث خطوته إليه و يعتقد أنه مخلصة من الأسى الأرضي ، فيقو .

و الآن يا موت اقترب يا مرحبا بالموتق المعتق

[90] - محمد مصطفى هدارة : التهديد في شعر المهجر ص 115.

معتق نفسي من قيود الأسى موثق جسمي في المدى الضيق

هاك شبابا ناظرا فاحتســـى و هاك قلبا نابضا فاختنـــــــق

لم يبق لي في الأرض من بغية ما الأرض إلا جنة الأحمــق[91]

بل إننا نلمح أساه في أسماء دواوينه مثل " تأوهات الروح " و شعلة العذاب و نجد << نسيب عريضة >> ه مزاجا قاتما جعله يقيم لليأس تمثالا ا يرفع عليه معوه طول حياته ، فهذا الشاعر ظل يصور ألمه في حيرة بالغة التأثير نستشفها من خال هذه الأبيات :

علقت عودي على صفصافـــــة ورحت في وحدتي أبكي على الناس

كأن في داخلي قبرا بوحدته دفنت كل بشاشتي و إيناســـــــــي [92]

و نجد إيليا أبو ماضي في النزعة التشاؤمية عندما يكون بصدد البحث عن جوهر الحياة الإنسانية و مثلها العليا << كالسعادة و الحقيقة >> و يظهر ذك جليا في قصيدته العنقاء التي تقول فيها :

فتشت جيب الفجر عنها و الدجى و مددت حتى للكواكب أصبعي

فإذا هما متحيران كلاها عاشق متحير متضعضع [93]

ويقول أيضا في نفس القصيدة

حتى إذا نشر القنوط ضبابة فوقي فغيبي و غيب موضعي

---

[91] - المرجع السابق ، ص ص ص117 ، 118 .

[92] - نسيب عريضة ، الأرواح الحائرة ص 138 .

[93] - إيليا أبو ماضي ، الجداول ، ص 11.

و تقطعت أمراس آمالي بها و هي التي من قبل لم تنقطع [94]

قراءة القصيدة تكشف عن نفسية تموج بالحيرة و القلق ، و الشرع الخارق في الكشف عن كنة الأشياء ، فالسعادة بالنسبة لإيليا شيئ مثالي يقدم لنيلها كل الأسباب " فلا الفجر و لا الدجى و لا حتى هذه الكواكب التي تعبر عن خلق عظيم استطاعت أن تجد له مفقودته "

و بالتالي فإن هذا الشعر الذي سرى في نفوس و ملك القلوب لا نجد له تفسيرا سوى حيرة النفس ، و عدم استقرارها و بالتالي تشعر بلدغ الأسى و يأس قاتل و حزن و مرارة تملأ الدنيا مرة كل مرد كل هذا و ذاك إلى الغربة و الإحساس بالشفاء بعيدا عن الوطن الأم و الشعور بالحرمان من الأهل و الأصدقاء ، فتبدوا الحياة مقفرة موحشة ،و يبدو الوجود مظلما مخيفا ، و تخيم الدنيا بالحزن و اليأس إشعارا عن رغبة الأهل و الوطن فلا يجد الشاعر سوى دموعه تسيل أنات و زفرات .

و إنه يشعر داما بأنه غريب ، و أنه في عزلة عن الناس ،و أ،ه ليس ممن حوله و لا من حوله منه ، فيعيش كالطير السجين في قفص من ذهب ، من هذا كان التشاؤم يغلب على شر كثير من هؤلاء المهاجرين إذ لا يوجد الشاعر حوله من يغريه أو يسليه فضلا عما يسره أو يفرحه ، بل يوجد البؤس و الشقاء و الحرمان ، و لقد أطلق على رشيد أيوب لقب " الشاعر الباكي " أو " الشاعر

---

[94] - المرجع نفسه ص 15.

الشاكي " ،و هذا لكثرة ما أطلقه من أنغام الأسى و الشكوى ،و يكاد طابع الحيرة و الألم يميزه عن غيره من الشعراء ،و لع السر في ذلك أنه انتقل فجأة من هدوء القرية الشامل إلى ضجيج أمريكا الهائل ، فقد بلغ في قصائده منتهى المرارة النفسية ، يشعر كأنه مهزوم و مفقود في الحياة و لا يحس بذات الحياة الدنيا و مرح الشباب ، و ج أمانيه تتلاشى و تموت أمامه و هو لا يستطيع التغيير .

كذلك نجد فوزي معلوف يصور حياة بائسة فيقول :

عشت بين المنى يراود نفسي فلت من طيوفها و عقام

أفتنيها و في يدي فؤادي ثم ألوي و في يدي حطام

أي حلم سكـــــينه ذهبيا لم تذــــــــبه ينارها الأيام

و رجاء حبكته من خيوط الذ ور لم ينسدل عليه الظلام

أي عود حمــتتلته للتلهي لم تقــــــــطع أوتاره الأيام

و تشيد وقعته للتــآسي فيعكره بالأــــــــنين الغرام

أي كأس قربته من شفاهي لم تحل حنظتك عيه المدام

و فؤاد ذوبت فيه فؤادي لم يصع عنده عهدي زمام

ضاع عمري سعيا وراء رسوم خططتها في الشاطئ الاحلام

عشت أبني على الرمال و ٥ بث بت ركن له الرمال دعام [95]

[95] - محمد مصطفى هدارة : المرجع السابق : ص ص 116 ، 117 .

أما إيليا أبو ماضي فيترفع أن يراه غيره غارقا في دموعه و حزنه فهو يضحك للناس و يبكي لنفسه ، كما جاء في هذه المقطوعة :

و لكني امرؤ للناس ضحكي و لي وحدي تباريحي و حزني

و تأبى كبريائي أن يراني فتى مغرورقا بالدمع جفني

فأستر عبرتي عنه لئلا يضيق بها و إن هي أحرقتني

أقوال لكل نواح : رويدا فإن الحزن لا يغني و يضني

وجدت الدمع بالأحرار يزري فليت الدمع لم يخلق بجفن [96]

هذا النموذج من شعر الحزن و الألم عند شرا المهجر و ما زال الكثير ممن إمتلات أشعارهم بهذه النزعة التشاؤمية كميخائيل نعيمة في قصيدته " الهم " و إلياس فرحات و نسيب عريضته و جبران و شفيق المعلوف و غيرهم .....

[96] - إيليا أبو ماضي : الخمائل ص 39.

الخاتمة

خاتمـــــــة :

إن أدب المهجر عكس تجربة أصحابه و أبرز إبداعاتهم و ثقافتهم كما حم معاناتهم و موقفهم من الحياة ، و كل ما تستطيع قوله هو أننا نجد في أدب المهجر أن الشعراء ثائرون على الأوضاع القديمة ، ثائرون على ألفاظه و صوره و أوزانه ، ثائرون على موضوعاته من مديح و غير مديح و هم مشغوفون بالطبيعة هم ذاتيون أخلصوا لمشاعرهم ، استمعوا لوساوس نفوسهم و صاغوا ذلك كله شعراء عذبا .

عندما يبحث القارئ عن قوة العبارة و نقاء اللغة و جمالها و جلالها ، لا يجد في أدب المهجر و كن يجد اتجاها جديدا في الفكر و الشعور كما يجد لغة بسيطة ، ليس فيها زخرف ولا وشى ، و لا شيء يحول بين القارئ و المعنى ، فالمعنى يكاد يكون عاريا ، و هم يقصدون إلى هذا العري من الزينة اللفظية ، فذلك مذهبهم .....

التعبير افني لا يراد ذاته ، و إنما يراد لما يحمله من أفكار و معان ، و المعنى هو كل شيء في الشعر هو روحه و جوهره ، أما اللفظ و الزخرف فعرضان قديمان باليان ، و إن من واجب الشاعر ، أن يطق العنان لشاعريته المبدعة.

إن المهاجر العربي الذي هاجر إلى أمريكا حاملا شعره قد حمل في أطواء نفسه تاريخ العرب الفني لمدة ثلاثة عشر قرنا أو يزيد ، بل حم الشرق كله وروحانيته و كل ما ألهمه من تصرف و فلسفة و تشاؤم أو تفاؤل و إيمان بالقدر .

بهذه المميزات المختلفة كان لشعر المهاجر الأمريكي أفق مستقل لا يكاد يرتبط بشعرنا القديم على الأقل من حيث النظرة العامة ، إذ له طابعه الفردي و له شخصيته الفكرية ، و له اعتناقه الشعوري و مثله الإنسانية ، و كل ذلك يرتكز على ثقافة واسعة بالآداب الغربية .

كلما قدمناه هنا بصورة مبسطة يدل دلالة واضحة أن شاعر المهاجر الأمريكي ، لا يزال يسبح بين لجج شعره في زوارق شراعية عربية و بالرغم مما اطلع عليه من ثقافات ، و بالرغم مما انتقل إليه من بيئات ، فلا تزال تنفجر في نفسه الينابيع التي انفجرت في نفوس أسلافه ، ولا تزال تتجلى في داخلي و أغوار نفسه بل تضطرم و تلتهب النفس المشتعلة التي اضطرمت و التهبت في أعماق آبائه.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا:المصادر :

1- أبو ماضي إيليا : الجداول الطبعة السادسة ، دار العلم لملايين ، بيروت أدار (1967) .

2- أبو ماضي إيليا : الخصائل ، الطبعة الثانية عشر ، دار العلم للملايين " بيروت " يناير (1978)

3- إلياس فرحات ، ديوان الربيع .

4- رياض معلوف : الأوتار المتقطعة ، مصر 1933 .

5- عريضة " نسيب " الأرواح الحائرة.

6- نعيمة ميخائيل : همس الجفون ، الطبعة الخامسة ، دار صادر ، بيروت (1966) .

ثانيا:المراجـــع :

1- بلبع عبد الحكيم : حركة التجديد الشعري في المهجريين النظرية و التطبيق ، مكتبة الشباب ، دار الرني للطباعة .

2- جميل سراج نادرة : شعراء الرابطة القلمية ، دراسات في شعر المهجر – دار المعارف بمصر (1964) .

3- داوود أنس : التجديد في شعر المهجر ، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر ، و القاهرة (1967).

4- الدقاق عمر : ملامح الشعر المهجري ، مطبعة جامعة حلب 1978 .

5- ديب وديع : الشعر العربي في المهجر الأمريكي ، الطبعة الثالثة ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، أفريل 1993 .

6- زلط عبد الرحيم محمود : العروبة في شعر المهاجر الأمريكي الجنوبي الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي (1972).

7- صيدح جورج : أدبنا و أدباؤنا في المهاجر الأمريكية ، الطبعة الثالثة دار العلم للملايين بيروت (1964) .

8- عبد الغاني حسن : الشعر العربي في المهجر ، الطبعة الثالثة مؤسسة خانجي بالقاهرة (1962) .

9- عيد رجاء و شوكت محمود : مقومات الشعر العربي الحديث و المعاصر ، دار الجيل لطباعة قصر اللؤلؤة الفجالة ، الناشر دار الفكر العربي .

10- نسيب نشاوي : المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر ديوان المطبوعات الجامعية (1984)

11- هدارة محمد مصطفى : التجديد في شعر المهجر ، الطبعة : الولى ، دار الفكر العربي (1957) .

12- ضيف شوقي :دراسات في الشعر العربي المعاصر ،الطبعة السادسة، دار المعارف ،(2003).

13- الناعوري عيسى : أدب المهجر، الطبعة الثالثة، دار المعارف ،(1977).